المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

ظاهرة الاغتراب
في شعر الأحنف العُكْبَرِي
(-٣٨٥هـ)
دراسة أدبية

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير

في قسم اللغة العربية- تخصص الدراسات الأدبية

The phenomenon of alienation when Ahnaf Akbari
Literary study

إعداد:

هدى علي حمود اللحيدان

الرقم الجامعي: ٣٠٢٨٠٢٤٩٢

إشراف:

الدكتور **مصطفى بكري السيد**

أستاذ الأدب العربي والنقد المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها

١٤٣٦-١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥- ٢٠١٦م

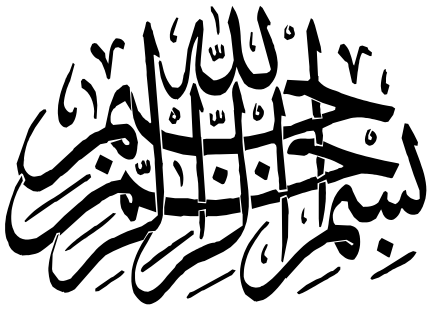
بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة الرسالة

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة القصيم

عمادة الدراسات العليا

كلية اللغة العربية والدِّراسات الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

ظاهرة الاغتراب في شعر الأحنف العكبري (٣٨٥هـ)

The Phenomenon of alienation when Ahanaf Akbari Literary study

الباحثة / هدى بنت علي بن حمود اللحيدان

الرقم الجامعي: (٣٠٢٨٠٢٤٩٢).

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات

درجة الماجستير في الآداب قسم الدراسات الأدبية.

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة:

الاسم	المرتبة العلمية	الصفة	التوقيع
د. مصطفى بكري محمد السيد	أستاذ مشارك	(مشرفًا ومقررًا)	
د. هاجد بن رميثان الحربي	أستاذ مشارك	(مناقشًا خارجيًّا)	
د. إبراهيم عبد العزيز زيد	أستاذ مشارك	(مناقشًا داخليًّا)	

في يوم الأربعاء ١٤٣٧/٦/١٤ الموافق: ٢٠١٦/٠٣/٢٣م

الإهداء

إلى أمي الغالية أمد الله في عمرها على طاعته.

إلى من ساندني وشد من أزري زوجي حفظه الله.

إلى كل من شجعني وساعدني على إتمام هذه الرسالة.

الخلاصة

هذه خلاصة الصفحات التي بين يديك أيها المتلقي الكريم، درست فيها جانبا من الحضور الإبداعي للأحنف العكبري، الشاعر الذي نبذ بالعراء، ومسته الضراء، شخصا وطبقة ورزقا، لكنه لم يستسلم، نجحوا في إبعاده عن فرص العيش الكريم، ونجح في إبداعه الذي أدان فيه إقصاءه وتهميشه، نجح عبر موهبته الشعرية التي تمردت على الحصار وكسرت القيود الرسمية والشعبية، لا ليكون شاعرًا يغرد في عالم مهجور، بل شاهدًا على حضارة، أخذت حقها من المدح على حساب تراجع حقها من النقد أحيانا.

وإذا كانت فرص العيش الكريم سحبت كليًّا من أمام الشاعر، فإن هامشا من الحرية مكنه- عبر شعر صادق الكلمات فصيح الآهات- أن يقدم شهادة قاسية عن حياته وحياة أمثاله، وما قاست من شح في المآكل والمشارب الآسنة، والملابس الرثة والمسكن المتهالك المتداعي.

ومما فاقم المشكلة ليس خذلان ذوي السلطان له ولأمثاله، بل أيضا تخلي الصديق والرفيق والجار؛ مما جعل الشاعر يعيش شبه حصار أكبر من طاقته، لقد دفن حيًّا عبر سكنه منـــزلاً وسط المقبرة، كما غابت الأسرة والسلطة والأصدقاء، وحضر المرض والعاهات.

ففي مقابل ذلك الهجوم الشامل، استل الشاعر سيف الشعر ليقول: إن مأساته المادية مؤقتة ولكن مشكلة المأزق القيمي مشكلة عابرة للزمان والمكان، فيجب التصدي لها والتحذير منها.

أتركك قارئي الكريم مع مقدمة وتمهيد، قلت فيهما ما استطعت قوله، ثم انتقلت إلى الاغتراب مفهومًا وبواعث وأنواعًا، وصدى ذلك في شعر الأحنف العكبري ثم خاتمة وفهارس.

لا أدعي أني قلت كل شيء، بل لعلي -بفضل الله- كتبت مرحلة عن شاعر آمل أن تكتمل بالقراء، وتستكمل بمتابعة البحث.

والله الموفق.

Abstract

This is the outcome of the pages you have, dear reader, in which one of the aspects of creativity of Al-Ahnaf Al-Akbary has been studied. Al-Akbary, the poet who has been rejected into the openness of the desert, afflicted with adversity on personal, social and material levels, but quitted not. They have managed to block him away from means of a dignified living. However, he succeeds through his creative works, by which he condemns his exclusion and marginalization. He succeeds with his poetic talent, which has rebelled against the siege and broken both the official and the public chains: not seeking spotlights on a dimmed stage, but giving evidence of a civilization, which often, has relished a right to be praised at the expense of criticism.

As the poet loses all means of a dignified living, a margin of freedom empowers him, through honest words of poetry eloquently whimpered, to stand a witness of the severe life of his and those alike, in terms of food, stagnant water, out-worn clothes and run-down dwellings.

It has not been only the influential persons who have added moisture to the soil, letting him and those alike down, but also the friend, the mate and the neighbor as well, which encapsulated the poet in that which is greater than his capacity. He has been buried alive, living in a shelter amidst the graveyard, in a scene, from which family, power and friends have been absent. Moreover, sickness and disabilities hover. However, and in response to that massive assault, the poet has declared war using his poetry saying that his material misery is tentative, but the ethics dilemma is 'chronic' and 'rampant' and must be confronted and warned from.

However, now I leave you, dear reader, with an introduction and a preface, through which I have written all that I could and then moved to 'alienation' as a concept and motive of types; which are all mirrored in the Al-Akbary poetry. Furthermore, a conclusion and a bibliography are entailed.

I do not, hereby, presume that I have covered all the aspects to the matter. Nevertheless, with God's grace, I have written down a phase about a poet, about which I hope readers can continue their researches.

Eventually, I ask God's blessing!

المقدمة

وتشتمل على ما يلي:

أهمية البحث وأسباب اختياره.

أهداف البحث.

مشكلة البحث والتساؤلات.

صعوبات البحث.

منهجية البحث.

خطة البحث.

منهج البحث.

الدراسات السابقة.

لقد مر الأدب العربي بعدة مراحل عبر مختلف العصور ابتداءً بالعصر الجاهلي، إلى غاية العصر العباسي الذي شهد تحولا مميزا، وتطورا ملحوظا في كل المجالات، ولا سيما المجال الأدبي الذي ينير لنا الطريق، ويساعدنا على الكشف عن وجه من أوجه الحضارة، وما هذا البحث سوى محاولة لإماطة اللثام، وإظهار بعض الجوانب الخفية، ومحاولة لتسليط الضوء على مظهر من المظاهر الموجودة والمشاهدة في تلك الفترة من العصر العباسي، ألا وهو الاغتراب، وذلك من خلال شعر الأحنف العُكْبَرِيّ.

وهذا الشاعر هو أبو الحسن عقيل بن محمد الأحنف العكبري – نسبة إلى بلـــدة عُكْبَر– ت ٣٨٥هـ أحد شعراء الكدية (الفقر، والتشرد، والتسول، والصعلكة)، وقد أوسمه الصاحب بن عباد هذا الوسام قائلا في فنه: (فرد من بني ساسان)[١] – أي من كبار الشعراء، من ذوي الجذور الفارسية، غير أنه كان عربي اللسان عروبي الصفات، وقد عُدّ في الطبقة الأولى من شعراء طبقته، فعقدتُ العزم على تتبع ما فِي هذا الشعر من قيم أدبية وإنسانية، وما يحمل من رؤى وآراء في الحياة والناس، يمكن أن يقيس عليها، أو يلجأ إليها كل من عضته الأيام بنابها، أو ألقته الظروف الصعبة بين فكيها.

والبحث يتمحور حول الاغتراب المتمثل في اصطدام الشاعر ثقافيًّا أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا، اصطدامه بالعصر الذي يعيش فيه، وبالمؤسسات العامة والخاصة، هذا الاصطدام الذي يكون غالبا ثروة أدبية، وثورة تعبيرية تجسد العلاقة الجدلية التي انبثقت عن هذا الاغتراب على مر الدهور، ولعل لاميةَ الشنفرى الجاهلي –التي يرى البعض أن حقها أن تعد في المعلقات– التي إن لم تكن باكورة هذا الاغتراب فقد كانت من أعظم تجلياته العربية والعالمية[٢]، لعل هده اللامية تحدد العلاقة المستدامة بين الاغتراب والفن، ولعل دراستي للأحنف العكبري تجدد هذه التوءمة بينهما، مبرزة للقارئ الكريم إحدى آليات إنتاج الشعر.

وقد طرحتُ جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكاليته وهي:

---

(١) ينظر يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ت إبراهيم صقر، الناشر: مكتبة مصر، د. ت، ص ٣١٣، مج٣.

(٢) ينظر: هموم الفرد والمجتمع بين لامية الشنفرى ورواية الشيخ والبحر، للروائـــي الأمريكـــي أرنـــست همنغـــواي، د/مصطفى بكري، من محاضراته في الدراسات العليا.

- إن كان تهميش أي إنسان يؤدي غالبا إلى اكتئابه أولاً، ثم انسحابه ثانيًا من الحضور الاجتماعي، فهل الفنان المرهف الأحاسيس يستطيع -عبر الكلمة- أن يسير بالاتجاه المعاكس محولا اغترابه واكتئابه -عبر الأدب- إلى شعر يعيد للأدب دوره الرسالي، وللخطاب الأدبي مكانه ومكانته في التغيير والتأثير؟.
- في بحثي سؤال عن ظاهرة الاغتراب، حيث يضعها تحت مجهر الدرس الأكاديمي لينقل المصطلح من عالم التفسيرات العجلى والتأويلات المتسرعة إلى الآفاق العلمية لتتوج بالسؤال التالي:
- ما أثر الاغتراب في صياغة العكبري؟ وكيف انتهت معاناة محصورة بزمان مقصورة على إنسان؟ كيف انتهت المعاناة المؤقتة إلى إبداعات مؤبدة توقف عندها في الماضي مؤرخو الأدب، ولن تنتهي بوقوف النقاد عندها، بل ستظل الدراسات تتناسل بالأسئلة عن الاغتراب، والإبداع، والعلاقات الجدلية بينهما.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تكمن أهمية البحث في أن الدراسات والأبحاث الأدبية السابقة لم تدرس الاغتراب عند الأحنف العكبري، وكما لم تقم بدراسته دراسة معمقة فقد أحببت تسليط الضوء على هذا الشاعر، الذي يمثل الوجه الآخر للأدب والحياة المعبر عن التشرد والاغتراب.

وأيضًا تأتي أهمية هذه الدراسة في أنها استكمال لدراسات سابقة تناولت الاغتراب من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، ولكن هذه الدراسة تختلف عن الدراسات السابقة، وذلك بدراسة الاغتراب عند شاعر مغمور لم يحظ بالدراسة الكافية.

وموضوع الاغتراب عند الأحنف العكبري- على حد علمي- من الموضوعات التي لم تفرد له دراسة مستقلة.

أهداف البحث:

١- تسليط الضوء على شاعر ينتمي إلى فئة مهمشة في الأدب العربي، حيث كان الاهتمام موجهًا نحو الشعراء الذين يتمركزون حول السلطة، فشعر المكدين في جملته على هامش الشعر العربي الذي كرسه اللغويون والنقاد ومؤرخو الأدب، ويعزى نعته بالهامشي إلى خصائصه الجمالية ومحتواه، وإلى ضياع كثير منه، وعدم شيوعه، وقلة اعتناء الباحثين

به.

٢- الكشف عن مواطن الاغتراب عند الأحنف العكبري.

٣- دراسة مظاهر الاغتراب الاجتماعي، والذاتي، والسياسي، والمكاني، والزماني عند الأحنف العكبري.

مشكلة البحث والتساؤلات:

يممت وجهي قبل ظاهرة الاغتراب عند الأحنف العكبري لدراستها، ابتغاء كشف ما أعطته هذه الظاهرة من عطاءات أدبية، وإبداعات شعرية، شدتني إليها وأنا أطالع أشعاره.

وإذا كانت الأزمة أمَّ الإبداع، فإن الاغتراب قد تمظهر بإبداع شعري صادق المشاعر، يمتح من أعماق النفس، ويرتوي بوعي الحس الذي تألم شعورًا ليتألق شعرًا، متغنيا بعناء الإنسان ومعاناته، ولقد كان شعر الأحنف العكبري نموذجًا لافتًا في ذلك، حملني على الوقوف عنده شاعرًا وظاهرة تعبيرية فيها غير القليل من الفرادة الأدبية.

وإذا كان لكل بحث أسئلتُه وتساؤلاته، فإن بحثي لن يكون بدعًا في ذلك، يتساءل عن ظاهرة الاغتراب- بوضعها تحت مجهر الدرس الأكاديمي- لينقل المصطلح من عالم التفسيرات العجلَى والتأويلات المدرسية إلى الآفاق العلمية التي أرجو من الله أن تنهض بها دراستي المستأنية، متوسلة بذلك للتوصل إلى الجواب عن سؤال البحث:

ما أثر الاغتراب في صياغة شعر العكبري؟، وكيف انتهت المعاناة المؤقتة بإبداعات مؤبدة أثمرتها هذه الغربة؟.

صعوبات البحث:

وأما صعوبات البحث فترجع إلى:

١- اعتمادي على مصدر واحد وهو ديوان الشاعر.

٢- قلة المراجع التي تناولت الشاعر؛ لكونه من الشعراء المغمورين.

٣- هذا هو البحث الأول الذي أكتبه في هذه المرحلة من عمري الأكاديمي، فمن الطبعي أن أخشى على القلم أن يرتجف، وعلى الفكر أن ينحرف، ولكن ثقتي بالله، ثم بما تقدمه الجامعة والقسم من عون وتشجيع، وما بذله المشرف من جهد ليبقى البحث والباحثة على الصراط المستقيم والنهج القويم، ما استطاع -إلى ذلك من سبيل، كل ذلك جعلني

أهمش الصعوبات، وأتطلع إلى غيوث الرحمن استسقاء للتوفيق، واجتنابًا ما أمكن للرأي الفطير والرؤية العجلَى.

منهجية البحث:

تتبُّع ظاهرة الاغتراب في شعر العكبري، ومن ثم تحليلها وقراءتها قراءة أدبية تبرز ما فيها من جديد وتجديد، مبينة أثرها في الصورة الشعرية، وهل استطاعت نحت مضامين متميزة في الاغتراب، ونقله عبر الشعر من البكاء على أطلال الحرمان إلى مفاهيم وتعابير تعطي لشعراء هذه الفئة حق الوقوف المتساوي مع قامات وقمم الشعر العباسي والعالمي؟، وذلك بما يحمله شعرهم من ثراء في الدلالة، وغنى بمضامينَ ذات حمولات مشعة بالأمل لكل المهمشين.

خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: وتشتمل على ما يلي:

أهمية البحث، وأسباب اختياره.

مشكلة البحث والتساؤلات.

أهداف البحث.

الدراسات السابقة.

منهجية البحث.

خطة البحث.

التمهيد: ويشتمل على:

١- مفهوم الاغتراب ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع.

٢- مدخل إلى مفهوم الكدية في الشعر العربي عامة، والشعر العباسي خاصة.

الفصل الأول: عوامل نشأة الاغتراب، ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: العامل الاجتماعي.

المبحث الثاني: العامل السياسي.

المبحث الثالث: العامل الاقتصادي.

المبحث الرابع: العامل الثقافي.

الفصل الثاني: الاغتراب المكاني والزماني، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أهمية المكان، والحنين إلى الوطن.

المبحث الثاني: الشاعر والموت.

المبحث الثالث: الشاعر وأحداث الزمان.

الفصل الثالث: الاغتراب الاجتماعي، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الاغتراب عن الناس.

المبحث الثاني: الاغتراب عن قيم المجتمع.

الفصل الرابع: الاغتراب الذاتي، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب الذاتي.

المبحث الثاني: صور الاغتراب الذاتي

الفصل الخامس: الاغتراب السياسي.

الخاتمة: وفيها سأتناول:

أهم نقاط البحث الرئيسة وأبرزها، والنتائج التي توصل إليها.

الفهارس: وتشمل:

١) فهرس المصادر والمراجع.

٢) فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

كان منهجي في البحث المنهج الذي يجعل النص يقول رسالته فلا يقال عنه، ولا يقدم بين يديه، بل يقوله بالمنهج ما قاله فعلاً، فأنا لن أستبق في دراستي النص، بل سأعكف على دراسته لأقرأه قراءة استكشاف، ثم قراءة تدبر وتأمل تفضي إلى بيان:

- توجهه الرئيس واتجاهه الأساس في المضامين الشعرية، والأطر اللغوية التي أطرت بها تلكم المضامين.
- بيان أثر الاغتراب مفرداتٍ وصورًا، ومن ثم استكشاف المنهج الذي شكل مسار الشعر والشاعر.
- بيان أثر الكدية، والتسول، والتهميش، في الصياغة والفن، فليس من البحث في شيء أن

نظن أن مهمتنا تقف عند حدود الكشف عن زمن ميلاد الشاعر والشعر، ومكان ذلك فحسب، إن اكتشاف مكانة الشاعر والشعر بوصفهما ثمرة للاغتراب والتهميش، واستكشاف كيف تحول الرفض الاجتماعي المتبادل بين الشاعر والمجتمع الذي تقبله مواطنا، ولكنه قلب له ظهر المجن إنسانا، وكيف رفض الشاعر أن يجزي على السلبيات بمثلها، بل رد عليها بفن يدينها ويدنيه عبر فنه من مرتبة المنقذ، بعد أن نبذه المجتمع بالعراء، ليواجه في وقت واحد فقرين: فقر ذات اليد، وفقر المجتمع من مخزون القيم من المرحمة، كما يحصل من بعض الشرائح في بعض العصور التي عرفت بها الأمة الإسلامية، ليواجه ذلك كله بأدب طليعي، كما قرأت في كثير من أشعار الأحنف العكبري الذي نقل الهجاء من الأشخاص إلى الأفكار، ومن السباحة في المياه الآسنة للتعصب العرقي والشعوبيات المدمرة، كبعض أشعار أبي نواس، وبشار فنقله الأحنف من ذلك إلى جلد الثقافة والأخلاقيات التي تثمر مثل هذه المواقف في غفلة أو تغافل من حراس الفضيلة والقيم.

إنّي لأحسب أن ذلك سيكون جوهر بحثي ومنهاجه إن شاء الله، مؤملة أن أوفق إلى ترجمة نيتي بإنتاج مثل هذه الطروحات التي أريدها من البحث.

الدراسات السابقة:

وقد اعتمدت لإنجاز هذا البحث على دراسات متعددة ساعدتني في تجميع هذا الكم الهائل من المعلومات في هذا المجال، وأهمها:

١) **الاغتراب في الشعر الأموي**: للدكتورة فاطمة حميد السويدي:

وقد درست الاغتراب في الشعر الأموي دراسة عميقة، قسمت دراستها إلى ثلاثة أبواب، فدرست في الباب الأول الاغتراب بأنواعه، وقد درست موضوعات الاغتراب بدءاً من الاغتراب المكاني الذي دفعت إليه عوامل مجتمعه، ثم الاغتراب السياسي، وتناولت الاغتراب الاجتماعي، ثم الاغتراب العاطفي.

وفي الباب الثاني درست التشكيل التصويري، وقسمت هذا المبحث إلى دراسة نظرية ودراسة تطبيقية.

وخصصت الباب الثالث لدراسة التشكيل اللغوي في شعر المغتربين، مبرزة أهم

الخصائص التي تميزت بها قصائد الاغتراب.

٢) الاغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري: للدكتورة سميرة سلامي.

وهذه الدراسة أطروحة دكتوراه قدمت في جامعة دمشق عام٢٠٠٠م. وقد عالجت الباحثة هذا الموضوع بالانطلاق من النتائج التي توصل إليها ريتشارد شاخت في كتابه (الاغتراب).

وقد وزعت الباحثة دراستها على أربعة أبواب، تناولت فيها مفهوم الاغتراب، واهتمت بما دار حول هذا المصطلح في الفلسفة الغربية خاصة، وتناولت ملامح الاغتراب في العصور العربية التي سبقت القرن الرابع الهجري، ودرست العوامل المؤدية إلى الاغتراب في القرن الرابع، ثم تحدثت عن مظاهر الاغتراب في الفترة التي درستها، ثم تكلمت عن الاغتراب عن المجتمع، وقهر الاغتراب، وتناولت الاغتراب عن الذات، والاغتراب الروحي عند الصوفية خاصة، ثم خصصت الدراسة بشعر المتنبي.

٣) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: للدكتور صغير العنـــزي، دراسة في المفهوم والرؤية والفن.

وهذه رسالة ماجستير، وقد وزع الباحث دراسته على خمسة فصول، تناول فيها مفهوم الاغتراب في النقد والفلسفة، ثم تحدث عن العوامل المؤثرة في الاغتراب، وتكلم عن أنواع الاغتراب، وختم رسالته بدراسة فنية لامحة لأثر الاغتراب في اللغة الشعرية، والصور والإيقاع.

٤) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر: للباحثة نهاد عبد الحفيظ سليمان.

وهذه الدراسة رسالة ماجستير قدمت في جامعة الإسكندرية ٢٠٠٧م، وقد قسمت الباحثة دراستها على خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول المؤثرات العامة التي أثرت في تفشي ظاهرة الاغتراب وتطورها في شعرنا المعاصر، وفي الفصل الثاني درست نشأة وتطور الاغتراب في الشعر العربي، وفي الفصل الثالث تناولت صور الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، وأما في الفصل الرابع فتحدثت عن القضايا الموضوعية للاغتراب في الشعر العربي المعاصر، وفي الفصل الخامس تناولت التشكيل الأدائي للاغتراب في الشعر العربي المعاصر.

التمهيد

ويشتمل على:

١) مفهوم الاغتراب، ورحلته من علم النفس إلى عالم الإبداع.

٢) مدخل إلى مفهوم الكُدية في الشعر العربي عامة، والشعر العباسي خاصة.

١) مفهوم الاغتراب:

يعد الاغتراب ظاهرة إنسانية، فنجده في مختلف المجتمعات، وفي كل الثقافات، وليس محصورًا في عصر دون عصر، فتاريخ الإنسانية حافل بمشاهد الاغتراب، ومن أكثر المفاهيم التصاقًا بالإنسان، «فهو من طبيعته، بل يمكن القول إنه دافع من دوافعه الأساسية، يختلف من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر؛ وذلك لأنه يتلوّن بطبيعة صاحبه، وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات، وبطبيعة العصر وبما يحتويه من قيم وأعراف ومعارف» [(١)].

وقد حظي مفهوم الاغتراب باهتمام كثير من الباحثين في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والفنية، وقد صوره الشعراء من خلال تجاربهم الإبداعية.

لذلك لابد من وقفة عند مفهوم الاغتراب، من خلال الكشف عن الجذر اللغوي لهذه الكلمة الذي يمتد إلى عصور قديمة، وإبراز دلالات هذا المصطلح لدى الفلاسفة والمفكرين والباحثين وغيرهم، ممن اهتموا بظاهرة الاغتراب في عصرنا الحاضر.

فمادة الغربة في (تهذيب اللغة) للأزهري (ت-٣٧٠) من «غرب عنا يغرب غربًا، وقد أغربته إذا نحيته» [(٢)].

وعند الجوهري في (الصحاح) (ت -٣٩٣) يقول: «التغريب النفي عن البلاد، وأيضًا غرب بعُد، وأغرب عني أي: تباعد» [(٣)].

ويشير ابن فارس في (مقاييس اللغة) (ت -٣٩٥) إلى أن الغربة هي: البعد عن الوطن.

يقال: «غربت الدار. ومن هذا الباب: غروب الشمس، كأنه بُعْدُها عن وجه الأرض، وشَأْو مغربٌ، أي: بعيد، ويقولون: «هل من مُغربةِ خبرٍ»، يريدون خبرًا أتى من بُعد» [(٤)].

---

(١) عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث،١٩٤٥م-١٩٦٢م، منشورات جامعة باتنة، (د. ط، د، ت)، ص ١٣.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري. تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة١٩٦٤م-١٩٦٧م، ٨/ ١١٣.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل حماد الجوهري، ت أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م، بيروت، لبنان، ١/ ٤٠٤.

(٤) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٥/ ٤٢٠- ٤٢١، مادة: غرب.

ونجد قريبًا من هذا المعنى في (المحكم والمحيط الأعظم) لابن سيده (ت-٤٥٨) فيقول: «والغُربة، والغُرب: النـــزوح عن الوطن» [١].

وعند ابن منظور (ت-٧١١هـ) في (لسان العرب) نجد المعاني السابقة مجتمعـــة بقولـــه: «والغَـــربُ: الذهاب والتنحِّي عن الناس.

وقد غرَبَ عنا يَغْربُ غَرْبًا، وغَرّبَ، وأَغْربَ، وغَرَّبه، وأغربه: نَحّاه. وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم، أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصن؛ وهو نفيه عن بلده.

والغربة والغَربُ: النوى والبعد، وقد تغَرّبَ» [٢].

ويمكن القول مما سبق: إن مفهوم الاغتراب عند اللغويين يدل على الغربة المكانية، وهي البعد عن الوطن، ولكنهم لم ينشغلوا بالغربة النفسية أو الغربة في الوطن.

وإذا بحثنا عن معنى الغربة والاغتراب في كتب التراث نجد أبا الفرج الأصفهاني في كتابه (أدب الغرباء) يرى أن الغريب هو كل مشرد عن الوطن، فيقول:

«وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته، وسمعت به وشاهدته من أخبار، من قال شعرًا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل متشرد عن أوطانه، ونازح عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذا كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد...» [٣].

ولقد حظي الاغتراب باهتمام فلاسفة العرب، فنجد أبا حيان التوحيدي في كتابه (الإشارات الإلهية) واصفًا حال الغربة التي أحسها هو بين أهله وفي عصره، يقول: «أين أنت من قريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟!».

ويقول: «أغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدًا في محل قربه؛ لأن غاية المجهود أن يسلوَ عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويُقصى عن

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق إبراهيم الأبيـــاري، ط١، ١٣٩١هـ-١٩٧١م، مكتبة البابي الحلبي، ٥/ ٢٩٩، مادة: غرب.

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ص ٦٣٨.

(٣) أدب الغرباء، لأبي فرج الأَصْبَهَاني، نشرَه عن مخطوطة فريدة في العالم د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط١، ١٩٧٢م-١٣٩٢هـ، ص ٢١- ٢٢.

المعهود...» [١].

(وأغرب الغرباء) كما يطلق عليه التوحيدي هو الذي يكون غريبًا وهو في الوطن وبين الآخرين، فالتوحيدي صور لنا المغترب الذي يشعر بعدم الانتماء، والانفصال عن الآخرين، وهو يعيش داخل الوطن[٢].

إذن الغربة عند التوحيدي هي الغربة النفسية والاجتماعية، التي تعني الانفصال عن الآخرين، وعدم التكيف والتلاؤم مع المجتمع. ولعله يكون أول أدبائنا في الالتفات إلى المعنى النفسي للغربة.

وإذا انتقلنا إلى مفهوم الاغتراب في الفكر الإسلامي فنجد قصة إهباط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض، وفي هذا الإهباط غربتان:

غربة مكانية: وهي الهبوط من الجنة إلى الأرض.

وغربة نفسية: تتمثل في الانتقال من نعيم الجنة إلى شقاء الأرض، وما يتبعه من نعيم وشقاء ومحن ومنح.

وقد حث الإسلام على الزهد في الدنيا وحذر من الإغراق في ملذاتها؛ لأن من لا يشعرون بهذا النوع من الاغتراب في هذه الحياة هم من أخذتهم الحياة بزينتها وزخرفها، أما المؤمنون فهم مشتركون في هذه الغربة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)) [٣].

ويصف النبي صلى الله عليه وسلم غربة أهل الإسلام فيقول: ((بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبي للغرباء)) [٤].

فعندما بزغ نور الإسلام، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إليه، لم يستجب لدعوته إلا قليل من الناس، وُصِفوا بأنهم غرباء في وسط المجتمع المشرك، وبعد انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها زالت هذه الغربة، ولكن هذه الغربة ستظهر مرة أخرى

---

(١) الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١١٣.

(٢) ينظر: الاغتراب سيرة ومصطلح، محمود رجب، ط٤، ١٩٩٣م، دار المعارف القاهرة، ص ٤٣.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العَسْقَلانِيّ، دار مصر للطباعة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ١١/ ٣٢٥.

(٤) صحيح مسلم، الإمام مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م، ١/ ١٣٠.

عندما يجد المؤمن نفسه غريبًا في مجتمع كثرت فيه مغريات الحياة، وفتن الناس بالشهوات والشبهات.

ويتضح من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه يثني على الغربة، وذلك عندما تعج الدنيا بالفتن، ويتراجع سلطان الدين، ويجد الفرد نفسه في جماعة بينه وبينهم فوارق عقدية وثقافية.

تقول سميرة سلامي: «وقد قسم أحد شيوخ الإسلام، هؤلاء المغتربين إلى قسمين:

القسم الأول: هو الذي يصلح نفسه عند فساد الناس.

القسم الثاني: هو الذي يصلح ما أفسد الناس من السنة، وقد جعله أعلى القسمين وأفضلهما.

فالفقيه في الدين والمتمسك بالسنة، الذي يميزها من الأهواء والبدع، في آخر الزمان، هو غريب، غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب في صلاته، لفساد صلاتهم، غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم، .... إلخ» [١].

فاغتراب المؤمنين يكمن في تمسكهم بدينهم، ومقاومة الدنيا وزينتها، ومحاربة الفتن وملذات الحياة، فهم يناضلون من أجل الآخرة والفوز بالجنة.

ويري فتح الله خليف أن الاغتراب بالمعني الإسلامي: «اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، اغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل، فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية، فقهروا السلطتين جميعًا سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات، واعتزالهم الناس» [٢].

فنجد الاغتراب في الفكر الإسلامي يحمل معنى انفصال الإنسان عن المجتمع ومؤسساته.

---

(١) الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، الناشر: دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٩-٣٠.

(٢) الاغتراب في الإسلام، فتح الله خليف، عالم الفكر، مج ١٠، ع١، ١٩٧٩م، مجلة دورية تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت، ص ٨٨.

الاغتراب في علم النفس:

اعتاد علماء النفس على النظر إلى الاغتراب بوصفه ظاهرة متعددة الأبعاد، فهذه الظواهر المتعددة، والأبعاد المختلفة، تتكئ عليها الدراسات النفسية والاجتماعية ومنها:

١) العجز: والمقصود به «شعور الفرد بأن لا حول له ولا قوة، وأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها» [(١)]، «وإحساسه بأن مقدراته في مجملها ليست ملكه أورهن تصرفه، وإنما تتحكم فيها وتسيرها كيانات أخرى خارجة عن ذاته، إنه العجز الذي يقف أمامه الشخص مكبلاً في غير استطاعته» [(٢)]، فهو لا يملك القدرة على التحكم فيما حوله، ويعجز عن السيطرة على تصرفاته ورغباته.

٢) اللامعنى: «ويعني شعور الفرد بعدم وجود معنى، أو مغزًى حقيقي للأشياء التي تحدث أمامه، أو للممارسات التي يقوم بها» [(٣)]، أو كما يقول (سيمان): «هو توقع الفرد أنه لن يستطيع التنبؤ بدرجة عالية من الكفاءة بالنتائج المستقبلية للسلوك» [(٤)].

فهو إحساس الفرد بأن حياته بلا هدف، وأنها لا قيمة ولا معنى لها، وأنه لا يجني أي فائدة من الحياة، إنه شعور الفرد بافتقاد وجود هدف واضح ومحدد لحياته.

٣) اللامعيارية: «وهي حالة انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه...وكما يقول (سيمان): الحالة التي يتوقع فيها الفرد بدرجة كبيرة، أن أشكال السلوك التي أصبحت مرفوضة اجتماعيًّا، غدت مقبولة تجاه أي أهداف محددة، أي أن الأشياء لم يعد لها أي ضوابط معيارية، وما كان خطأ أصبح صوابًا، وما كان صوابًا أصبح ينظر إليه باعتباره خطأ...» [(٥)]، فهو شعور الفرد بالفشل في إدراك وتقبل قيم المجتمع ومعاييره السائدة.

---

(١) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، ط ٢٠٠٣، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٣٦.

(٢) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري دراسة في المفهوم والرؤية والفن، صغير العنزي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ، ص ١٨.

(٣) الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، أميرة علي الزهراني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٢٦هـ-١٤٢٧هـ، ص ٢٧.

(٤) دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة، ص ٣٧.

(٥) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة، ص ٣٧-٣٨.

٤) العزلة الاجتماعية: «ويقصد بها شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي، والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية الحميمة» [١]، أي إحساس الفرد بالانفصال عن الآخرين، وعدم الانتماء لهم.

٥) التشيؤ: يشير التشيؤ إلى «أن الفرد قد تحوّل إلى موضوع وفقد إحساسه بهويته، ومن ثم بأنه مقتلع حيث لا جذور تربطه بنفسه أو بواقعه» [٢]، «فالقيم والكائنات الإنسانية تتحول إلى أشياء وسلع قابلة للبيع في سوق الحياة» [٣]، فهو شعور الفرد بأنه لا قيمة له، ويفقد ذاته الحقيقية، وسيطرة الجوانب المادية على مجريات الحياة.

ويرى أحمد خيري حافظ «أن الاغتراب يعني وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة به بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق، وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابي، أو الشعور بفقدان المعنى واللامبالاة، ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي، وما يصاحبه من أعراض إكلينيكية» [٤].

ومنهم من يرى أن الاغتراب يعني تركيز اهتمام الإنسان بحدث معين، فيشغل تفكيره وينقله بعيدًا عن ذاته. كما يقول محمود رجب: «إن لمصطلح الاغتراب استخدامات نفسية تتفاوت قوة وضعفًا، فقد يعني مجرد السرحان أو الشرود الذهني الذي ينشأ نتيجة اهتمام الإنسان بأمور معينة اهتماما يبعده عن ذاته، وقد يعني الحس أو غياب الوعي» [٥].

وكما أن الاغتراب النفسي يحدد قدرة الفرد على الانتماء للآخرين، فإننا نجد عبد المنعم الحفني يرى: «أن الاغتراب عن النفس والذات الحقيقية يحدد قدرة الفرد على الانتماء للآخرين، وهذا الاغتراب عن الآخرين يحدد قدرة الفرد على اكتشاف نفسه، أي أن الاثنين

---

(١) ينظر: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة ، ص ٣٩.

(٢) مظاهر الاغتراب لدى بعض الطلبة السوريين بمصر، بشرى علي، مجلة جامعة دمشق، المجلد٢٤، العدد الأول ٢٠٠٨م، ص ٥١٩.

(٣) الاغتراب في العصر العباسي، صغير العنتري، ص ١٧.

(٤) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٤١.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٢.

متداخلان، يعتمد كل منهما على الآخر» [١].

ويعد ما كتبه (إيريك فروم) من أكثر البحوث دقة وعمقًا في موضوع الاغتراب: «حيث تحدث عنه، وهو ينظر للاغتراب على أنه نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه، أو منفصلا عنها؛ ولهذا استخدم مصطلح الاغتراب الذاتي أو اغتراب النفس، الذي يعني ضعف الصلة أو انعدامها بين الفرد وذاته، ويعزو أسباب الاغتراب إلى طبيعة المجتمعات الصناعية، وهيمنة التكنولوجيا والقيم والاتجاهات، والأيديولوجيات التسلطية...» [٢].

فهو يشير إلى عدم مقدرة الفرد على التواصل مع نفسه وإحساسه، بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، وبين إحساسه بنفسه في الواقع.

فالاغتراب له أسباب ذاتية وموضوعية، والمبدعون أو المبتكرون في المجتمع تدفعهم العوامل الذاتية أكثر من أي عوامل أخرى، وبخصوص ذلك «يرى كينيستون أن هناك أسبابًا ذاتية، وأسبابًا موضوعية تؤدي إلى الاغتراب، ويرد الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية ديناميكية تحدث في نمو الفرد، أما الأسباب الموضوعية فهي الظروف المحيطة بالفرد وما يكونها من عوامل حضارية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية» [٣].

---

(١) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد ، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) الاغتراب في الشعر الأموي، فاطمة محمد حميد السويدي، ط١، ١٩٩٧م، الناشر مكتبة مدبولي، صفحة (ت) من المدخل.

مرحلة الاغتراب وانتقاله من علم النفس إلى عالم الإبداع:

لم يظل الاغتراب تحت وطأة التعريفات النفسية والمصطلحات العلمية، بل انطلق إلى عالم الإبداع، فهناك العديد من الشعراء الذين دفعهم الاغتراب إلى الإبداع، فعبروا عن أحاسيسهم وانفعالاتهم بكل صدق ووضوح، «فالفنان الغريب يتخذ من الفن وسيلة لنقل تجربته الفردية مع الاغتراب، بما تحمله من مشاعر وأحاسيس فريدة، وقد تلتقي تجربته الخاصة مع تجارب الآخرين التي يلتقطها الفنان، ليضيفها إلى تجربته الخاصة؛ مما يزيدها عمقًا وثراءً، ثم يترجمها عن طريق الفن، وتلتقي الفنون كلها في ذلك، رغم اختلاف طرائق التعبير في كل منها، كما تلتقي في أنها تنقلنا إلى عالم آخر، فنغترب بها عن عالمنا الواقعي، وذلك أن الفن هو أسلوبنا البشري في تكوين عالم يكون غريبًا عن الواقع، عالم لا يكون مناظرًا له، ولا يمكن وصفه بأنه مجرد تعبير عنه...» [(١)].

فالفنان يواجه الاغتراب بالفن أيًّا كان هذا الفن، سواء أكان لوحة فنية يرسمها أم قصيدة شعرية ينظمها، محاولاً بذلك التحليق بعيدًا عن الواقع.

ومنهم من يرى أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، «ويرى (ولبرج) أن العملية الإبداعية مرتبطة بالاغتراب، إلا أننا لا ينبغي أن نجعل الاغتراب عنصرًا أساسيا للعملية الإبداعية، ويؤيد هذا القول ما توصل إليه (بورناهم) الذي شعر في فترة من الفترات بالألم والضيق، وبالتالي شعر بالاغتراب النفسي، فاستطاع الاستفادة من هذه الحالة، فاتجه إلى الكتابة، فانعكست هذه التجربة على نتاجه الأدبي» [(٢)].

«ودرس (مورهان) و (توانا) العلاقة بين سمات الشخصية والاغتراب لدى عينة مكونة من (١٠٠) كاتب هندي، تتراوح أعمارهم بين ٢٣- ٨٢ سنة من كتاب الرواية والقصة القصيرة، وتوصلا إلى أن هؤلاء المبدعين قد حصلوا على درجات عالية في الاغتراب، مقارنة

---

(١) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ سليمان الشريف، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٣٣.

(٢) الاغتراب في القصيدة الجاهلية، لمحمود هياجنة، دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، عمان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص ٣٢.

بالجمهور العام، وأن العديد من المبدعين يظهرون العديد من سمات الشخصية المغتربة» [١].

وإذا أردنا أن نعرف الإبداع الفني فإننا نجد (بوركهارت) يعرفه «بأنه حالة تعبيرية يعبر بها الفنان عن وجهة نظره في الحياة، وتخضع تلك الحالة التعبيرية لنظام جمالي؛ مما يتيح الاتصال بين الفنان المبدع والحياة بكل ثرائها وشمولها...ولا شك أن ما قدمه الفنانون والأدباء من اعترافات صريحة بما يعانونه من قلق واغتراب يمثل أحد المؤشرات العامة التي تفيد وجود علاقة أو ارتباط من نوعٍ ما بين الاغتراب والإبداع الفني» [٢].

فعملية الإبداع الفني حظيت باهتمام عددٍ كبيرٍ من الباحثين والمتخصصين في شتى المجالات الفنية، خاصة الباحثين في علم النفس، فقام بعضهم بعمل دراسات عن هذه العملية ومراحلها عند عدد من الفنانين، «ومنها دراسة قدمتها (كاترين باتريك) عن عملية الإبداع لدى الشعراء والفنانين والمصورين، وانتهت منها إلى التعرف على أربع مراحل للتفكير الإبداعي، أو للعملية الإبداعية وجدت جميعها لدى كل المفحوصين، وهي:

١- مرحلة التهيؤ أو الاستعداد:

وهي البداية حين يتعرض الفنان لأفكار جديدة تأتلف بسرعة.

٢- مرحلة الاختمار:

وهي تتبع أو تصاحب المرحلة السابقة، وتعبر في الغالب عن حالة مزاجية أو فكرة تختمر دون إرادة الفنان، ثم تعتمل في نفسه، بينما يكون في انشغال عنها بأمر آخر، ولكنها قد تطفو إلى الوعي من وقت لآخر.

٣- مرحلة الإشراق:

وهي المرحلة التي تتبلور فيها الفكرة وتتخلق، بعد ما كانت مختمرة أو غير مشعور بها، فتعلن عن نفسها سافرة.

---

(١) الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره، روضة بلال لمولد، رسالة ماجستير، جامعة أم القــرى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص ٢٣.

(٢) ينظر: الاغتراب والإبداع الفني، محمد عباس يوسف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٣- ١٠٤.

٤- المراجعة أو التحقيق أو التنفيذ:

وهي المرحلة التي يقوم فيها الفنان بتمحيص الفكرة، ثم تنفيذها والتعبير عنها» [١].

إذن نلاحظ أن هناك علاقةً بين الاغتراب والإبداع، فتحرر الاغتراب من التعريفات النفسية إلى العمليات الإبداعية، معبرًا عن مشاعر وأحاسيس المغتربين، فاتخذوا من الفن وسيلة للتعبير والبوح عما بداخلهم من مكنونات نفسية تبحث لها عن مخرج، فلم تجد إلا الفن.

وإذا تصفحنا الشعر العربي القديم فإننا نلمح تأثير الاغتراب على الشعراء منذ العصر الجاهلي، فحياة الإنسان الجاهلي قائمة على التنقل من مكان إلى آخر، «ولو رجعنا إلى حياة الإنسان الجاهلي لوجدنا أنها رحلة لا تهدأ وراء الكلأ، وانتقال من مكان إلى مكان، وتتبع لمساقط الغيث حيث كان، فالهجرة والتنقل تأتي وفقًا لضرورة عصية على إرادة الإنسان الجاهلي، وهو لا يملك لها دفعًا» [٢].

فالإنسان كان يجوب الصحراء ويقطع الفيافي بحثًا عن لقمة العيش، وقد صور الشعراء في أشعارهم حياة الغربة والاغتراب، فالفنان الجيد هو الذي يستطيع أن يستفيد من تجارب اغترابه، فيكون هذا الاغتراب بمثابة الجمرة التي توقد فنه وتزيده قوة.

وها هو امرؤ القيس يصور لنا غربته، فقد عانى من ألمها وتجرع مراراتها، وهو من الشعراء الذين قاسوا مرارة الحرمان، بفقد والده ومحاولته الأخذ بثأره، بالإضافة إلى ما فرضته عليه طبيعة الحياة الصحراوية القاسية، فهي حياة مبنية على الترحال، فيقول عندما رأى امرأة تدفن إلى سفح عسيب الذي مات عنده[٣]:

أجارتنا إن الخطوب تنوبُ ... وإنِّي مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان ها هُنا ... وكل غريبٍ للغريب نسيبُ[٤]

---

(١) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، ص ٦٩.

(٣) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، ط٥، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٤٩.

(٤) يعني أن الغريب نسيب الغريب، لأن الغربة تجمع بينهما كما يجمع النسب بين المتباعدين في القرابة. كما ورد في =

وأما عنترة العبسي فيصور لنا حاله إذا ابتعد عن وطنه واغترب عنه، وأن حب الوطن يقترن بحب الأولاد[١]:

أحـــرقتني نـــارُ الجَـــوىَ والبـــــعادِ بعَـــد فقـــدِ الأوطـــانِ والأولادِ
شابَ رأســـي فـــصار أبـــيضَ لونًـــا بعد ما كـــانَ حالكًـــا بالـــسوادِ

إذن فقد عانى الشعراء في الجاهلية من الاغتراب نتيجة لظروفهم المعيشية القاسية، التي تجبرهم على الهجرة من مكان إلى آخر، مما يترك الأثر العميق في نفوسهم، فهم يعانون من الغربة المكانية من خلال البعد عن الوطن.

ونرى ذلك عند عمالقة الشعر في العصر العباسي، فأبو تمام كان كثير التنقل والترحال، طلبًا للعطاء والنوال ممن مدحهم من الخلفاء والولاة، ففرقته الغربة وأبعدته عن أهله وإخوانه، فكان يغترب عن وطنه فيحن إليه[٢]:

ما اليومُ أول توديـــعٍ ولا الثـــاني البين أكثرُ من شـــوقي وأحـــزاني
دعِ الفراقَ فإن الـــدهرَ ســـاعَدهُ فصارَ أملكَ من روحي بجُثماني

و أما المتنبي الشاعر الفحل فإن الغربة لم تقف حاجزًا مانعا لإبداعه وتفتنه في شعره، فهو يعبر عن الاغتراب بقوله[٣]:

مَغَاني الشعبِ طيبًـــا في المغـــاني بمنـــــزلةِ الربيـــعِ مـــنَ الزمـــانِ
ولكـــــن الفـــــتى العـــــربيّ فيهـــــا غريبُ الوجهِ واليـــدِ واللـــسانِ

فهو يصور غربة الفتى العربي في بلاد فارس، وكيف أنه أصبح غريبًا وسط الأعاجم، غريبًا في شكله وفي لغته.

ونرى أبا العلاء المعري مصورًا لنا غربته، وأنه يبحث عن أصدقاء يتحلون بالدين والأخلاق الفاضلة، بعيدين عن المظاهر والرياء فيقول[٤]:

الديوان. ص٦٥.

(١) شرح ديوان عنترة بن شداد، عني بتصحيحه: أمين سعيد، المطبعة العربية بمصر، د، ت، ص ٦٥.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط٤، الناشر: دار المعارف، (د، ت)، القـــاهرة، ص ٣٠٨.

(٣) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، نهاد عبد الحفيظ، ص ١٥٤.

(٤) اللزوميات، أبو العلاء المعري، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الإخصائيين، منشورات محمد علي بيـــضون، =

وقد فتشتُ عن أصحابِ ديــنٍ لهم نُسكٌ ولــيس لهــم ريــاءُ

فنرى أن الاغتراب لم يكن الوسيلة الوحيدة لنبوغ الشاعر، بل كان حافزًا ودافعًا لهؤلاء الشعراء المبدعين نحو الإبداع، حتى أصبحوا من شعراء الطليعة المبدعة.

دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د، ت)، ٢٠٠١م، ١/ ٤١.

٢) مدخل إلى مفهوم الكُدية في الشعر العربي عامة، والشعر العباسي خاصة:

المفهوم اللغوي للكدية:

تعد الكُدية ظاهرة اجتماعيه متميزة، فهي وليدة الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي، والتباين الشاسع بين أفراد المجتمع، فإذا بحثنا في المعاجم العربية عن معنى هذه الكلمة فنجد ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ) في كتابه (لسان العرب) يشير إلى معنى الكدية بقوله:

«كدأ: كدأ النبت يكدأ كدءًا وكدوءًا، وكدئ: أصابه البرد فلبده في الأرض، وأصابه العطش فأبطأ نبته، وحفر فأكدي إذا بلغ الصلب وصادف كدية.

والكُدْية: الأرض الغليظة، وقيل: الأرض الصلبة، وقيل: الصفاة العظيمة الشديدة.

ويقال: أكدى، أي ألح في المسألة وأنشد:

تَضن فنُعفيها إن الدار ساعفت فلا نحن نكديها ولا هي تَبذلُ

ويقال: لا يكديك سؤالي، أي لا يلح عليك، وقوله: فلا نحن نكديها: أي فلا نحن نُلح عليها، وقوله تعالى «وأعطى قليلاً وأكدى» أي قطع القليل» [(١)].

وفى القاموس المحيط: للفيروزآبادي، (٧٢٩ -٨١٧هـ):

«الكُديةُ، بالضم: شِدَّة الدهرِ، كالكاديةِ، والأرضُ الغليظةُ، والصفاةُ العظيمةُ الشديدةُ، والشيءُ الصلبُ بين الحجارةِ والطينِ، وأكدى: بخل وقل خيره» [(٢)].

وقد أورد الأزهري[(٣)] (٢٨٢-٣٧٠) في معجمه (تهذيب اللغة) ما يصل إلى تسعة معان لها، من ذلك قوله: «قال الفراء: أكدى: أمسك عن العطية، وقطع، وقال الزجاج: معنى أكدى: أمسك من العطية، وقطع، وأصله من الحفر في البئر، يقال للحافر إذا حفر، فبلغ إلى

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي، الناشر: دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، م١، ص ١٣٧ مادة كدأ، م١٥، ص ٢١٦، مادة كدى.

(٢) القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ١٣٢٧. مادة كدى.

(٣) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، راجعه: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د، ت)، ١٠/ ٣٢٣، مادة كدا.

حجر لا يمكنه معه الحفر: قد بلغت الكُدية، وعند ذلك يقطع الحفر، وقال الليث: الكدية: صلابة تكون في الأرض».

وقد ذكر الزبيدي (١١٤٥-٢٠٥١هـ) في كتابه (تاج العروس) معظم هذه المعاني وأضاف إليها: « والكُدْيةُ بالضّم حرفة السائل الملح» [١].

وبعد تتبع كلمة الكدية فِي المعاجم العربية نستخلص أنها دلت واستخدمت لمعنى الشدة والصلابة، واستخدمت للإلحاح الشديد في المسألة.

مفهوم الكُدية في المصطلح الأدبي:

إذا بحثنا في كتب الأدب العربي التي وردت في ثناياها هذه المادة نجد أن الجاحظ أول من تحدث عن المكدين في كتابه (البخلاء)، وذكر بعض أصنافهم بقوله: «وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة، هو خالويه المكدي، وكان قد بلغ في البخل أو التكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد... قالوا: إنك لتعرف المكدين؟ قال وكيف لا أعرفهم؟ وأنا كنت كاجار[٢] في حداثة سني» [٣].

ونجد أيضًا الحريري في كتابه (درة الغواص) يقف عند هذه الكلمة فاهتدى إلى أنها «مأخوذة من الجدوى أو الاستجداء، فقد ذكر من أوهام الخواص استعمال يكدف بالكاف بمعنى يستقل ما أعطي، والصواب بجدف بالجيم قال: ويماثل هذه اللفظة في إبدال جيمها كافا قولهم لمن يكثر السؤال: مكد» [٤].

وقد أوضح لنا الحريري في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثيرًا من البواعث الدافعة على التسول والكدية فقال:

«... سمعت أن المعايش إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمارست هذه الأربع، لأنظر أيها أوفق وأنفع، فما أحمدت منها معيشة، ولا استرغدتُ فيها عيشة، ...ولم أرَ ما هو بارد

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، مطبعة حكومة الكويت، ٣٩/ ٣٨١، مادة كدي.

(٢) كاجار: لفظة كانت تطلق على بعض القبائل التركية، ولعل الغجر صورة لها، فيكون المعنى أنه غجري، أي نوري. البخلاء ص٣٩.

(٣) البخلاء للجاحظ، دار صادر بيروت، ط ٢٠٠٠، (د- ت) ص٣٩.

(٤) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٣٥.

المغنم، لذيذ المطعم، وافي المكسب، صافي المشرب، إلا الحرفة التي وضع ساسن أساسها، ونوع أجناسها وأضرم في الخافقين نارها...» [١].

ونجد البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوئ) يتطرق إلى الكدية في فصل عقده تحت عنوان (محاسن السؤال).

قال الجاحظ: سمعت شيخًا من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة، فسأله الشيخ عن حاله فقال:

لعن الله الكدية، ولعن أصحابها في صناعة ما أخسها وأقلها، إنها ما علمت، تخلق الوجه، وتضع من الرجال، وهل رأيت مكديًا أفلح؟ ...إلخ)) [٢].

وقد كثر استعمال هذه اللفظة في كتب الأدب في العصر العباسي، وأن هذه الظاهرة يطلق عليها مصطلحات عدة منها: الكدية، الشحاذة، الساسانية.

أسباب ظهور طائفة المكدين:

إذا أردت أن أسلط الضوء على هذه الظاهرة في العصر الجاهلي «فينبغي أن ندرسها في شعر هؤلاء المشردين، الذين عدا عليهم الزمن فسلبهم الأمن والراحة، فلجؤوا إلى الفيافي والقفار، حتى إذا كونوا عصبة قوية انتشروا في الأرض يملؤونها رعبًا، ويوسعونها سلبًا ونهبًا، فإذا ما استقروا قليلاً طفقوا يترنمون مفتخرين بما فعلوه» [٣].

هذه الفئة هي فئة الصعاليك، تلك الفئة المهمشة التي كانت تعيش تحت وطأة الفقر والجوع والحرمان؛ مما أجج في نفوسهم الثورة والتمرد على المجتمع وقوانينه.

ونجد شوقي ضيف يقف على معنى الصعلكة بقوله: «والصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة» [٤].

وقد قسم شوقي هذه الفئة في العصر الجاهلي إلى ثلاث مجموعات:

---

(١) مقامات الحريري، أبو محمد القاسم بن علي الحريري، الناشر: مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م، ص ٥٣٦، ص ٥٣٧.

(٢) المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ١٩٩١م، ص ٢١٧.

(٣) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي محمد خير حرب، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٨م، ص ٤٤-٤٥.

(٤) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، شوقي ضيف، الناشر: مطبعة المعارف، القاهرة، ط٢٤، ٢٠٠٣ م، ص ٣٧٥.

مجموعة خلعتهم قبائلهم لكثرة ما يمارسون من جرائم، وهم ما يطلق عليهم بالخلعاء الشذاذ.

ومجموعة كانت أمهاتهم من الحبشيات السود، وكانوا يتصفون بالسواد فنبذهم آباؤهم، وكان يطلق عليهم أغربة العرب لسوادهم.

ومجموعة اتخذت من الصعلكة حرفة لها، كعروة بن الورد العبسي(١).

وهي طبقات يجمع بينها الفقر والجوع والتمرد، وأنها اتخذت من السلب والنهب وقطع الطرق وسيلة من وسائل طلب الرزق.

ويصور لنا أبو خراش الهذلي إحساسهم بالترفع والكرامة في الحياة فيقول(٢):

وإنّي لأُثوي الجوعَ حتى يملَّني ... فيذهبَ لم يدنسْ ثيابي ولا جِرمي
وأغتَبِق الماءَ القَراحَ فانتهي ... إذا الزادُ أمسى للمُزلَّجِ(٣) ذا طعمِ
أردُّ شُجاعَ البطنِ قد تَعلمينهُ ... وأُوثرُ غيري من عيالكِ بالطُّعمِ
مخافةَ أن أحيا برغمٍ وذلةٍ ... وللَموتُ خيرٌ من حياةٍ على رغمِ

فهو يفتخر بصبره على الجوع، فهو يصبر حتى يزول عنه، وأنه يكفيه الماء القراح بينما ينعم غيره بالطعام، وأنه إن وجد الطعام فهو يقدمه لأولاده.

فأخبار الصعاليك وأشعارهم وما تحمله من أفكار ورؤى وتصورات، نجدها تنضح بكل معاني الفقر والحاجة، والإحساس الأليم بوقعه على نفوسهم، فهم يتألمون من تدني منزلتهم الاجتماعية، وتهميش المجتمع لهم، وعدم مساواتهم مع سائر أفراد المجتمع في شؤون الحياة، ليس لأنهم عاجزون، بل لأن المجتمع ظلمهم، ولم يعطهم كامل حقوقهم، وحرمهم من العدالة الاجتماعية، وسلبهم الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة(٤).

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، شوقي ضيف ، ص ٣٧٥.

(٢) شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، ت عبد الستار أحمد فراج، دار النشر: مكتبة دار العروبة، القاهرة، (د، ت) ص١٢٠٠.

(٣) المزلج: ورد في كتب اللغة عدة معان، وهي أنه البخيل، والدون من كل شيء، والذي ليس بتام الحزم، والناقص الضعيف. كما ورد في الديوان. ص١٢٠٠.

(٤) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ط٣، القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٠م، ص ٣٢- ٣٣.

نستخلص مما سبق أن الصعاليك في العصر الجاهلي هم من الفئات المهمشة في ذلك العصر، فاتخذوا من الأدب وسيلة للتعبير عن إحساسهم بمشاعر الظلم والفقر والجوع، واللجوء إلى السلب والنهب لكسب لقمة العيش.

وحين جاء الإسلام وشاع في أرجاء الجزيرة العربية، ألغى السلطة القبلية، وحل محلها سلطة الشريعة، وصان حقوق الإنسان وكرامته، ودعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من الذل والهوان.

فحين أشرق نور الإسلام قضى نوره على الكفر، وحلت الرابطة الدينية مكان الرابطة القبلية، واجتمع المؤمنون على كلمة التوحيد، وأعلنت المساواة بينهم، فلا فرق بين غني وفقير، وعالج الإسلام مشكلة الفقر، وحارب استغلال الأغنياء للفقراء[١].

إذن ساوى الإسلام بين الناس في الحقوق والواجبات، وفرض العدالة الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، ففرض الزكاة على الأغنياء، ودعا إلى الصدقة وحببها إلى الناس: «كل ذلك كان مدعاة ليعم السلام وتتهذب النفوس المتمردة، وظهرت بوارق الأمل في النفوس المضطربة، فاستكانت للإسلام، إذ قدم لها المجتمع الفاضل المنشود» [٢].

وأما في العصر الأموي فيقول حسين عطوان: «ولم تتوقف حركة الصعلكة في العصر الأموي، بل ظهرت فيه وقويت قوة شديدة، ولعل فساد الحياة الاقتصادية، واضطراب الأحوال السياسية، والتمسك بالروح الجاهلية هي أهم الأسباب التي أدت إلى نشأة الصعاليك الأمويين» [٣].

فالأمويون أثاروا العصبية الجاهلية، وأشعلوا نار الفتنة بين القبائل، وظهرت الأحزاب السياسية المختلفة؛ مما تسبب باختلاف أصوات الشعراء، فكل شاعر ينادي لحزبه، وفي ذلك يقول عبد الهادي حرب: «وقد كان الظلم في هذا العصر يتمثل في ترف الحكام، وكثرة مطالبهم؛ لينفقوا ذلك على رغباتهم ومن يوالونهم من الشعراء، ومن يضحكونهم من المضحكين، ومن يلهونهم من المطربين، فاشتدوا على العمال ليجبوا لهم الخراج، واشتد

(١) ينظر: موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٤٦- ٤٧.

(٢) الاغتراب في الشعر الأموي، فاطمة السويدي، ط١، ١٩٩٧م، مكتبة مدبولي. القاهرة، ص ١٠١.

(٣) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٩٧م، ص ٦٥.

العمال على الناس، فشكا الناس من العمال إلى الخلفاء، وكانت الشكوى عامة ولكن الذي خُلد لنا منها تلك الشكاوى المنظومة التي تقدم بها الشعراء معبرين عن قومهم أو قبائلهم»[١]، وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز نرى كعب الأشقري يصور هذا التذمر فيقول للخليفة[٢]:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تُجلد بالسيوف رقابُ

«وكانت الأوضاع السياسة الأموية مضطربة؛ لكثرة الأحزاب المناوئة للحكم، والتي كان الأمويون يتصدون فيها للقضاء على أعدائهم؛ مما كان له الأثر على بعض الصعاليك المتمردين، الذين خرجوا على الأمويون وأنكروا سياستهم الفاسدة» [٣]، فنجد مالك بن الريب يصور لنا ذلك فيقول[٤]:

لو كنتمُ تنكرون الغدر قلت لكم يا آل مروان جارى منكم الحكمُ
لا كنت أحدث سوءًا فِي إمارتكم ولا الذي فات منى قبل ينتقمُ
نحن الذين إذا خفتم مجللةً قلتم لنا إننا منكم لتعتصموا
حتى إذا انفرجت عنكم دُجنتها صرتم كجرمٍ فلا آلٌ ولا رحمُ

فقد شاع في هذا العصر الظلم الاقتصادي، وكثرة الأحزاب السياسية، وانتشر الفقر، فثار الفقراء على الأغنياء، وكثر السلب والنهب، فظهرت فئة من الثائرين على واقعهم الاجتماعي، والمتمردين على أوضاعهم السياسية، فحركة الصعلكة لم تضعف و لم تتوقف في هذا العصر، بل نهضت من مرقدها من جديد.

«وقد ظهر في العصر الأموي كدية بالأدب تمثلت ببعض الشعراء المتصعلكين كما

---

(١) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٥٥-٥٧.

(٢) شعر كعب بن معدان الأشقري، جمع وتحقيق: أحمد محمد عبيد، الناشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية. ٢٠١٠م. ص٦٥.

(٣) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، حسين عطوان، ص ٥٨، ٥٩.

(٤) ديوان مالك بن الريب حياته وشعره، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مستلة من مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد١٥، ١/ ٨٥.

تمثلت ببعض الأعراب» [١].

وإذا انتقلنا للعصر العباسي «فلم يكن انتقال الخلافة إلى العباسيين مجرد تغيير سياسي فقط، بل كان ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام الأمويين، إلى مجتمع إسلامي جديد، تعيش فيه أمة إسلامية، تضم عناصر بشرية جديدة ارتفعت منـــزلة بعضها -كالفرس- على الجنس العربي، واستطاعت أن تفرض نفوذها عليها وتطبعه بطابعها، بدرجة جعلت الجاحظ يطلق عبارته المشهورة التي وصف فيها الدولة الأموية بأنها: (عربية أعرابية)، والدولة العباسية بأنها فارسية أعجمية» [٢].

فالمجتمع العباسي أصبح خليطًا من عناصر أجنبية، بالإضافة إلى العنصر العربي، فهذا الامتزاج أدى إلى تغير في بعض العادات والتقاليد العربية.

فقد ساهمت روافد كثيرة منذ أواخر القرن الأول في تكوين الحياة الحضارية والاجتماعية والثقافية، فقد استقر العرب وامتزجوا امتزاجًا قويًّا بالشعوب الأجنبية بالمصاهرة والمعاشرة والولاء، ونقلوا عنها كثيرًا من العلوم والآداب، وخاصة عن الفرس الذين وقفوا بجانب العباسيين، وناصروهم إلى أن تم الغلب على بني أمية[٣].

إذن ازدهرت الحياة الحضارة والاجتماعية والثقافية في هذا العصر، واهتم الخلفاء بترجمة العلوم والثقافات الأجنبية.

ولكن بالمقابل فقد عانى الشعب من الظلم الاجتماعي، فالمجتمع أصبح مقسمًا إلى عدة طبقات، طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، فكان الخلفاء والوزراء وحواشيهم يعيشون حياة مترفة، وينعمون بأنواع الملذات، بينما يرتع عامة الشعب في مراتع الفقر والحرمان.

وإذا بحثنا عن أسباب بروز الكدية وانتشارها فإننا نجد ذلك ماثلا في حياة الترف التي تنعم به طبقة معينة في ذلك العصر، وفي المقابل نجد الفقر الذي رزح تحته فئة معينة من المجتمع، «فلا يفتقر قوم إلا إذا ترف آخرون، ولا يترف قوم إلا على حساب فقر

---

(١) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٥٩.

(٢) حركة التجديد فِي الشعر العباسي، محمد عبد العزيز الموافي، دار غريب، للطباعة والنـــشر والتوزيـــع، القـــاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ط٦، ص ٣٩.

(٣) ينظر: مقدمة القصيدة العربية فِي العصر العباسي الأول، حسين عطوان، ط٢، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧هـ، ص ١١-١٢.

آخرين...» [١].

وقد قال أحد السلف: ما رأيت تبذيرا قط إلا وإلى جانبه حق مضيع.

فتدهور الأوضاع السياسية وما نتج عنها من حروب وما خلفته من فساد اقتصادي وتوزيع ظالم للثروة، أدى إلى بروز ظاهرة الكدية.

فتحت ظل هذه الظروف أراد المكدي أن يخفف من حدة الحياة القاسية، فلجأ إلى الحيلة بحثًا عن الرزق، فأصبح يتكسب من الناس بحيله وفكاهاته، «فالمكدون هم تلك الطائفة التي اتخذت من الاستجداء والكسب المشوب بالحيلة طريقها للوصول إلى مال الآخرين» [٢].

فكل هذه المعاناة التي كان يتألم منها الشعب، أدت إلى تحررهم من قيود المجتمع، وبث أصواتهم بالشكوى، فالأدب هو ظل الحياة الاجتماعية، فهم ينقلون لنا صورة الواقع الاجتماعي الذي يعيشون تحت وطأته.

وقد رسم لنا المكدي هيئته أثناء خروجه فهو يرتدى الثياب البالية، حاملاً أدواته الخاصة التي تساعده على التسول، فيقول أبو فرعون الساسي[٣]:

لقد غدوتُ خلق الثيابِ ... معلق الزنبيل والجرابِ

طبًّا بدق حلقِ الأبوابِ ... أسمعُ ذات الخدرِ والحجابِ

و لم يغفل المكدي أن يصف لنا منزله المظلم، وفي ذلك يقول ابن لنكك[٤]:

لنا سراج نوره ظلمة ... ليس له ظل على الأرضِ

وكأنه شخص الإمام الذي ... يبغي الهدى منه أولو الرفضِ

وكان البحث عما يسد جوعهم أهم ما يسعى إليه المكدي، فأكثروا من ذكر الخبز في

---

(١) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٦١.

(٢) ظاهرة الكدية في الأدب العربي نشأتها وخصائصها الفنية، حسن إسماعيل عبد الغنى، مكتبة الزهراء، مصر، ١٤١١هـ، ص ٥٢- ٥٣.

(٣) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، ت: وداد القاضي، الناشر: دار صادر بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. ص١٤٤، ١٤٥مج ٦.

(٤) معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي، ت: إحسان عباس. الناشر: دار الغرب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ٥/ ٢٣٣٨.

أشعارهم، يقول أبو دلف الخزرجي معبرًا عن ذلك[١].

وقـــــد يلــــتمس الخبــــز بمكـــــروه مـــــن الأمــــــر

ويقول عاذر بن شاكر في وصفه للرغيف[٢]:

دعْ عنـــك لـــومي يـــا عـــذولُ فلـــستُ أفهـــمُ مـــا تقـــولُ
إن الرغيــــــــفَ محبــــــــبٌ في النـــاسِ مطْلبـــهُ جميــــلُ
لا ســــيَما إن كـــان وسْـــطَ حروفـــهِ عـــرقٌ نبيــــلُ

وقد زخر شعرهم بمشاعر الاستسلام والترجي كقول أبي فرعون الساسي[٣]:

يـــا إخـــوتي يـــا معـــشرَ المـــوالي
أنـــا ابـــنكم وأنـــتم أخـــوالي
هـــذا زبيلـــي وجـــرابي خـــالِي
والمـــاءُ عـــالٍ، والـــدقيقُ غـــالِي
وقـــد مللنـــا كثـــرة العيـــالِ

فهو يوجه نداءه إلى الأغنياء، ويطلب أن يرأفوا بحاله، ويعطفوا عليه فها هو زبيله وجرابه خاليان من الطعام والماء، ويشكو من كثرة العيال وقلة الطعام.

ولقد استطاع المكدي أن ينقل واقعه في صورة حية للآخرين، فها هو أبو فرعون الساسي يقول[٤]:

وصـــبيةٍ مثـــل فـــراخ الـــذرِّ سود الوجـــوه كـــسواد القـــدرِ
جـــاء الـــشتاء وهـــم بـــشرِّ بغـــير قمـــص وبغـــير أزرِ

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ت إبراهيم صقر، الناشر: مكتبة مصر، د. ت، ص ٣٣٥، مج٣.

(٢) الورقة، لأبي عبد الله محمد بن داود الجراح، ت: عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص ١٢٤.

(٣) الورقة، لأبي عبد الله محمد بن داود الجراح، ت: عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص ٥٨.

(٤) طبقات الشعراء، عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص ٣٧٦.

حـــــتى إذا لاح عمـــــود الفجـــــر وجاءني الصبح غـــدوت أســـري

وبعـــــضهم ملتـــــصق بـــــصدري وبعـــضهم منحجـــر بحجـــري

فهو يصور لنا البؤس والفقر الذي يعيشه أبناؤه، فالسواد يعلو وجوههم من الجوع، وليس لديهم ما يحميهم من البرد، فهو لا يجد ما يسد رمقهم من الطعام، هذه الصورة تجسد لنا مرارة الحياة التي يعيشها هؤلاء المكدون.

والشحاذ الماهر لا يكتفي بلبس الثياب البالية، بل له طريقته في الاستجداء وكسب المال، وذلك في طريقة التعبير بأسلوب يستدر فيه عطف الناس كقول الأعرابي: «أين الوجوه الصباح، والعقول الصحاح، والألسن الفصاح، والأنساب الصراح، والمكارم الرياح، والصدور الفساح، تعيذني من مقامي هذا» [(١)].

وبهذا يستطيع المتسول أن يحصل على ما يريد من المجتمع، سواء أكان بالأسواق أم في المساجد.

ويقول الكاتب الموسوعي حاجي خليفة[(٢)] في فصل تحت عنوان: (علم الحيل الساسانية):

«هو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال، والذي يباشره يتزيا في كل بلدة بزي يناسب تلك البلدة، بأن يعتقد أهلها في أصحاب ذلك الزي، فتارة يختارون زي الوعاظ، إلى غير ذلك، ثم إنهم يحتالون في خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها» [(٣)].

وبعد أن استعرضنا مفهوم الكدية ومعنى الصعلكة، فحريٌّ بنا أن نقف على ما بينهما من فروق:

فحركة الصعلكة الجاهلية امتدت إلى العصر الأموي، وأما «في العصر العباسي فهي تختلف عنها؛ لأنها تقوم على الحيل والخدع، فصعاليك العصر العباسي لا يشبهون صعاليك العصرين الجاهلي والأموي، فالمجتمع العباسي اكتسب عادات وتقاليد جديدة، وذلك

(١) ظاهرة الكدية في الأدب العربي نشأتها وخصائصها الفنية، حسن إسماعيل عبد الغني، ص ٨٩.

(٢) مصطفى بن عبد الله، ١٠١٧هـ-١٠٦٧هـ.

(٣) أهل الكدية أبطال المقامات في الأدب العربي، عبد النافع طليمات، ص ٦٩.

بمخالطته للأعاجم: مما أدى إلى اختفاء الصعاليك الخلعاء والشذاذ والأغربة السود، وظهور طائفة جديدة تتناسب مع الحياة الاجتماعية، وابتكروا طريقة لكسب رزقهم من خلال الاستجداء والحيلة» [(١)].

فالصعلكة استيلاء على أموال الناس عن طريق القتال، وأما الكدية فهي استجداء بسؤال الناس، وتقوم على الحيل والخداع، والصعلوك يتميز بالعزة والأنفة بينما المكدي يتصف بالذلة، «وذلة المكدي خاضعة أيضا للمجتمع والبيئة، فقد وجد المكدي نفسه في خليط من الأجناس، ضاعت فيهم النخوة العربية، وفشا فيهم الاستبداد...» [(٢)].

(١) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، حسين عطوان ، ط٤، ص ٨٢.

(٢) موسوعة أدب المحتالين، عبد الهادي حرب، ص ٣٣.

الفصل الأول

عوامل نشأة الاغتراب

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: العامل الاجتماعي.

المبحث الثاني: العامل السياسي.

المبحث الثالث: العامل الاقتصادي.

المبحث الرابع: العامل الثقافي.

عندما نطالع دواوين شعرائنا نجد أن بواكير الاغتراب لاحت منذ العصر الجاهلي، فنجد أن الشعراء قد عاشوا حياة الغربة والاغتراب، وصوروا ذلك في أشعارهم، وما زالت هذه الظاهرة مستمرة حتى عصرنا الحالي.

وظاهرة الاغتراب بأنواعها لم تنشأ من فراغ في العصر العباسي، وإنما نشأت نتيجة دواعٍ وأسباب سياسية واقتصادية، وثقافية واجتماعية، وسنعرض هنا لمجمل العوامل التي أدت إلى نشوء الاغتراب في هذا العصر.

المبحث الأول: العامل الاجتماعي:

إن نشوء الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وانتقال عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى الكوفة، ثم إلى بغداد بعد معركة الزاب كان إيذانًا بغلبة الطوابع الفارسية على المرافق العامة في المجتمع العربي.

ولم يكن تحول المجتمع العربي فجأة بين ليلة وضحاها، بل لاحت ملامح التغيير فيه بعد أن توالت الفتوحات الإسلامية، وأصبحت كثير من الأقطار تحت مظلة الإسلام، ومنذ أن اتجه أهل البادية إلى سكن الحاضرة، وما خلفته الفتوحات من تمازج بين العرب والشعوب الأجنبية، فهذا التحول التدريجي بانت معالمه مع قيام الدولة العباسية.

ونشأت ظاهرة التوليد في هذا العصر وصار مألوفًا أن يتزوج «رجل من أمة وامرأة من أمة أخرى، فينشأ بينهما نسل يجري في عروقه دم الأمتين، وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة هذا الجيل من الناس، وكان هذا التوليد ظاهرة قوية نتجت عن اختلاط الأجناس، ومن نظام الرق والولاء الذي طبق عقب الفتح الإسلامي» [(١)]، فكان كثير من الخلفاء من أبناء الإماء وكذلك رجال الدولة، ولم يقتصر ذلك على التمازج العرقي، بل كان هناك تمازج ثقافي وحضاري بين الشعوب المتباينة، فغابت السلطة العربية التي كانت مهيمنة في العصر الأموي، وسيطر الموالي على زمام الأمور، فقد تولوا المناصب العالية في الدولة.

وشاعت التيارات الدينية المختلفة يقول عمر فروخ: «أما الدولة والحكم فقد كانا متنازعين بين أصحاب تيارين: بين العلويين الشيعة يُظاهرهم الفرس وعرب الجنوب عامة،

(١) ضحى الإسلام، أحمد أمين، الناشر كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (د، ت)، ١/ ٢٠.

وبين العباسيين يعضدهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة» [١].

وفي تعدد المذاهب الدينية يقول الأحنف[٢]:

فجَاهدْ وقلِّبْ كتابَ الإلهِ لتَلقْى الإلهَ إذا مُتَّ به
فقَد قلَّدَ الناسُ رهبانهم فكُلٌّ يجاهدُ عن مذهَبِه

وبعد أن استقر العباسيون وطغت عليهم مظاهر الترف والرخاء؛ وكانت الأسواق تعج بالتجارة إلى جانب الصناعة، وزراعة الأراضي، وبدا عليهم التأثير الفارسي فعمروا القصور والحدائق، وتفننوا في أنواع الطعام والشراب، وانتشرت مجالس الموسيقى والغناء[٣].

وتفشى الظلم وبخسهم حقوق الناس، فشاعت ظاهرة الرشوة في الوظائف الإدارية، وما نتج عنها من كثرة العزل والتولية بين الولاة والوزراء، وبين العمال والموظفين، ولم تتوقف عند هذا الحد بل امتدت الرشوة إلى القضاء وأحكامه، فالأحنف لم يتوانَ عن تصوير الظلم الذي شاع في عصره فيقول[٤]:

قدْ ظهَرَ الجورُ من الوالي فطابَ لبسُ الخَلَقِ البالي
واستحْسنَ الناسُ جُحودَ الغنى وأظهرَ الإفلاسَ ذو المالِ
سِرْ كيفَ ما شئتَ فإن الورَى في الكسبِ محتالُ ابنُ محتالِ
قد فَسدَ الناسُ وقلَّ الوفا فليس من يَبْقى على حالِ
فكنْ وحيدًا غير مُستأنِسٍ بوالدٍ دانٍ ولا خالِ

إن تردّي أحوالهم المعيشية كانت بسبب ظلم بعض الحكام لهم، وحتى كثير من الأغنياء لم يعطوهم حقوقهم المشروعة من أموالهم، ففشا الفساد بين بعض فئات المجتمع، وغاب التكافل الاجتماعي، فسيطرةُ هذه الأشياء على الأوضاع الاجتماعية جعلت الشاعر يشعر

(١) الأعصر العباسية، الأدب المحدث: إلى آخر القرن الرابع الهجري ١٣٢-٣٩٩هـ، ٧٥٠، ١٠٠٨م، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت. ص٣٧.

(٢) ديوان الأحنف العكبري، تحقيق سلطان بن سعد السلطان، ط١، الرياض،١٤٢٠هـ. ص ١١.

(٣) ينظر: تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الأول، محمود علي عبد المعطي، ط١١٤٣٠هـ، دار النشر الدولي، الرياض، ص ١٦.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٤٢٤.

بالغربة، ويفضل العزلة وعدم مخالطة الناس.

فانتقال العرب من حياتهم البسيطة البدائية التي طغت عليها الخشونة إلى حياة سيطر عليها الترف واللهو والمجون، جعلتهم يتنازلون عن كثير من العادات والتقاليد الموروثة، فهم في قرارة أنفسهم يرفضون هذا الواقع، ويشعرون بالغربة حيال واقعهم الجديد.

ونرى الأحنف يتضجر من أوضاع عصره فيقول[١]:

أفٍّ لهـذا الزمـانِ مـن نكـدِه ... خـالفَ في رسمـه ومقتـصدِه
أحوالُـه أصـبحتْ مخالفـةً ... لما مَضى في القديمِ مـن رغـدِه

وقد رفع الناس رايات التذمر والشكوى، ثائرين على الأوضاع الفاسدة، فعلى الرغم من كثرة الأموال والثراء الاقتصادي للدولة، إلا أنها كانت لفئة معينة من الناس «وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعًا بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء، وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق، ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين، الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد، والعنف الشديد» [٢].

وكثر الرقيق وانتشرت تجارته، وكانت بيوت أهل بغداد وغيرها لا تخلو غالبًا، «من رقيقٍ جارية أو غلام، وأنهم من أجناس مختلفة، وديانات مختلفة وثقافات مختلفة» [٣]، وقد ترك الخلفاء والسادة لرقيقهم حرية الديانة.

و لم يقتصر أثر الجواري على الغناء وحده، بل كانت بيوت القيان هي التي «تقدم الخمر والغناء، وتيسر لمرتاديها الكثير من أسباب الفساد والانحلال، وتهيئ لهم كل ما يمكن أن يحصل عليه متمرد على القيم الاجتماعية، خارج على المبادئ الخلقية، في بحر من الفساد، أمواجه خمر وقيان، وغلمان وعزوف، وسكر ورقص ومجون» [٤].

واشتد المجون في العصر العباسي وكثرت أسبابه، وشاع الخمر وانتشار الشراب في هذا

(١) ديوان الأحنف، ص ٢١٠.

(٢) العصر العباسي، شوقي ضيف، ص ٤٥.

(٣) ضحى الإسلام، أحمد أمين، ١/ ٨٩.

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، ط٦ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦م، ص ١٨٧-١٨٨.

العصر؛ «بسبب الأثر الفارسي، والتساهل الديني إلى حد ما، والرغبة في الاستمتاع بمكتسبات الحضارة ولذاتها في وقت ازدهرت فيه الحياة، وتدفقت الأموال، وعاش الناس في بحبوحة ينشدون اللذات أنى وجدت، ومنها بل على رأسها لذة الشراب» [(١)].

أن للفرس دورًا كبيرًا في نمو ظاهرة المجون وانتشارها في هذا العصر، وتدفق الأموال، وميل الناس إلى حياة الترف والنعيم، لم تكن تشمل إلا طبقة معينة من الناس.

ولا يخلو شعر الأحنف من ذكر الخمر؛ مما يشير إلى أنها شاعت عند جميع فئات المجتمع فيقول[(٢)]:

خلوتُ بشربِ الرَّاحِ وحدي لأنني ... بلوت الوَرَى من صاحبٍ ونديمِ
فلم أُلفِ من يُصفي الودِاد ولم أجِد ... أخا ثِقةٍ في شدةٍ ونعيمِ

فالأحنف يشرب الخمر بمفرده، ويعلل ذلك بأنه لم يجد الصديق الوفي الذي يؤازره في الشدة والرخاء.

ونجده في موضع آخر يؤكد تحريم الخمر، وأنها محرمة تحريمًا صرّح به القرآن، وفسرته الشريعة الإسلامية، ويقول في ذلك[(٣)]:

وقالوا: الخمرُ قلت لهم: حرامٌ ... على نصِّ الشريعةِ والمثاني
وقلتُ لهم: كتابُ الله بيني ... وبينكمُ وتفسيرُ القران
فإن كان الكتابُ أبانَ هذا ... بتحريمٍ صريح أو بيانِ
وإلا فارتحلنا من بلادٍ ... إلى الأخرى من خوف القناني[(٤)]

فالأحنف يصرح مرة بشرب الخمر، ومرة يؤكد تحريمه، فذلك إشارة إلى الاغتراب الذي يلف حياة الشاعر، فهو يرفض الحياة التي يعيشها، ولربما لجأ إلى الخمر –بزعمه– هروبًا من الواقع، وتعبيرًا عن سخطه الاجتماعي.

وهكذا أثرت هذه الحضارات الوافدة أثرًا عظيمًا في المجتمع العباسي، وفي ذلك يقول

---

(١) الرؤية والفن في الأدب العباسي، عز الدين إسماعيل، ص ٩٩.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٤٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢٠.

(٤) القنان: جمع مفرده القنينة، وهي وعاء من زجاج يعمل الشراب فيه، كما ورد في الديوان، ص ٥٢٠.

شوقي ضيف متحدثًا عن المجتمع العباسي: «ورث كل ما كان في المجتمع الفارسي من أدوات لهو ومجون، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن معهم الناس، فقد مضوا يعبون الخمر عبًّا، ويحتسون كؤوسها حتى الثمالة» (١).

وفي المقابل كانت فئات أخرى من الناس يتجرعون مرارة الجوع والفقر، لا يجدون من الطعام ما يسد جوعهم، ولا من الثياب ما يكسوهم، ومنهم من يعمل ويكدح ليوفر لقمة العيش، ومنهم من وجد في الحيلة والاستجداء رزقه، و «كان هناك تفاوت طبقي واضح في المجتمع العباسي، فكان هناك طبقة أرستقراطية من أصحاب الثروة والممتلكات، وكان هناك أخرى من الفقراء الذين يعيشون على هامش الحياة، وكان أصحابها يمثلون أغلبية في المجتمع، وكان هذا التفاوت الطبقي يثير الألم والمرارة في نفوس هؤلاء الفقراء المحرومين» (٢).

وينقل لنا الأحنف صورة من الواقع الاجتماعي البائس، الذي تتراءى فيه التناقضات الاجتماعية فيقول(٣):

أرى رجالاً على خيلٍ مسومةٍ ... يشيدُ مُلكَهُمْ الأتراكُ والَخزرُ
عليهمُ الخزُّ والديباجُ يبطنهُ ... غَلائلُ(٤) الشَّربِ والأنبوبُ(٥) والحِبرُ(٦)
في الماءِ غرقَى وبيتي مُقفرٌ شعث ... فقْرَ العِراصِ فلا ماءٌ ولا مطرُ(٧)
أقولُ والفقرُ يأسُوني ويَجرحُني ... والحرفُ يقذِفُني في لُجَّة الفِكرِ(٨)
يفنى شقائي كمَا يفنى نعيمُكُم ... وتستوي حِين لا وزْرٌ ولا وَزَرُ

(١) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ٦٥.
(٢) اتجاهات جديدة في شعر العصر العباسي الأول، فوزي عيسى، ٢٠١١م، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، ص ٣٠٨.
(٣) ديوان الأحنف، ص ٢٢٨.
(٤) غلائل: مفردة غلالة، وهو ثوب رقيق يلبس تحت الدثار. كما ورد في الديوان ص٢٢٨.
(٥) الأنبوب: ما بين العقدتين في القصب والقناة. كما ورد في الديوان ص٢٢٨.
(٦) الحبر: جمع الحبرة ضرب من ثياب اليمن فيه خطوط. كما ورد في الديوان ص٢٢٨.
(٧) العراص: مفردة عرصة، وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها. كما ورد في الديوان ص٢٢٨.
(٨) ويلاحظ الإقواء في هذا البيت حيث تغيرت حركة الروي.

وقد عانى الكثير من الشعراء في هذا العصر من الضيق والاضطهاد، وشاركوا الناس في معاناتهم، فصوروا حرمانهم وبؤسهم، ووصفوا الأحوال التعيسة التي عاشوها، وكان الأحنف العكبري أحد أولئك الشعراء الذين شاركوا الناس همومهم؛ لأنها همومه أيضًا، فهو من خلال الأبيات السابقة يصور مشهدًا من الواقع المرير الذي يؤلمه، عندما يرى من يركب الخيل، ويرتدي أفخم الملابس، في الوقت الذي يكسو الفقر ملامحه، فهو يسكن العراء، ولا يجد من الماء ما يروي عطشه، فهذه الصورة تنقل لنا مدى ألم الشاعر وإحساسه بالاغتراب حيال مجتمعه الذي سلب منه حقوقه.

ونلمح في الأبيات السابقة تناصًّا مع أبيات الحطيئة التي قال فيها[١]:

ماذا تقول لأفراخ بـــذي مـــرخٍ ... حُمرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شـــجرُ

غيبت كاسبهُم في قعْـــرِ مظلمـــةٍ ... فاغفرْ عليك سلامُ الله يـــا عمـــرُ

أنت الأمينُ الذي من بعد صاحبه ... ألقتْ إليك مقاليدَ النهى البـــشرُ

لم يؤثروك بهـــا إذ قـــدموك لهـــا ... لكن لأنفُسِهم كانت بهـــا الإثـــرُ

فامنُن على صبية بالرمل مسكنُهُم ... بين الأباطِح يغشاهم بها القُـــرُ[٢]

أهلي فداؤك كم بـــيني وبينـــهم ... من عرض دوّيةٍ يفنى بها الحجرُ[٣]

ولكن ثمة فرق بينهما فالحطيئة وجد من يستجيب إليه، فما أن وقعت هذه الأبيات على مسامع الخليفة العادل عمر بن الخطاب حتى أفرج عنه، أما شاعرنا المسكين فلم تُجدِ صرخاته وآهاته.

وقد برزت ظاهرة الخرافات والأوهام والتدجيل، فيتوهمون أنهم سيصبحون أغنياء، وذلك بتطبيق بعض الخرافات، واستخدام التنجيم، والطلاسم والسحر[٤].

ويصور الأحنف عمله في التنجيم، وأن ضيق العيش أرغمه على مزاولة التنجيم

---

(١) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السِّكِّيْت، دراسة وتبويب د. مفيد قميحة، الناشر: دار الكتـــب العلميـــة، ط١، ١٤١٣هـ، بيروت، لبنان، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) القرر: البرد والصقيع. ديوان الحطيئة ص١٠٨.

(٣) عرض دوية: يعني داوية، وهي الصحراء الواسعة. ديوان الحطيئة ص١٠٨.

(٤) ينظر: الأدب في ظل بني بويه، محمود غناوي الزهيري، ١٩٤٩م، مطبعة الأمانة، مصر (د-ت)، ص ٥٣-٥٤.

فيقول[(١)]:

ما تكــسبتُ بــالتنجيم حــتى صار طوع الأيــام غــير مطيــع

وتنتشر ظاهرة التنجيم غالبًا عند النساء، فيذهبن للمنجمين لمعرفة حظوظهن، فيأتين للشاعر ويخبرهن عما قد يحدث لهن، ويأخذ المال مقابل ذلك، وإذ لم يتحقق ما قاله فإنه يتعرض للسب والشتم يقول[(٢)]:

أدعـــــو النـــــساءَ إلى النجـــــومِ مُبـــــشِّرًا ببُخُوتِهنَّـــــه
يأخُـــــذْنَ عنِّـــــي الـــــذي سَـــــخَنتْ عليـــــه عُيُونَهُنّـــــه
فـــإذا رجعـــــتُ ولم يكـــــنْ مـــا قلـــتُ فيمـــا نالَهُنّـــه
يَـــــشتِمْنِي بجُنُوهِنّـــــه ســــــفاهة وأســــــبهُنّه

ونجد الشاعر في موضع آخر لا يؤمن بالتنجيم، وينصح المنجمين أن يفوضوا أمرهم لله فهو المدبر يقول[(٣)]:

يـــا مـــنْ تـــدبَّر بـــالنجومِ كُـــرورَ ليـــلٍ أو نهـــارْ
فَـــوض أمُـــوركَ في الخطـــوبِ إلى المـــدبرِ للـــسرارْ

وازدحم المجتمع العباسي بالزنادقة والملاحدة الذين كانت لهم عقائدهم المنحرفة. ولعل ذلك يعود إلى الحضارات والثقافات المختلفة التي هيمنت على المجتمع.

«وعندما ينحصر المال والترف في طبقة معينة من طبقات المجتمع؛ الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من خلفاء وقادة ووزراء وتجار، لابد من أن يعُم البؤس والشقاء والفقر في الطبقات الأخرى، وإن لم تكن معدمة، فكانت هذه الحالة أن ولّدت شيئًا جديدًا في نفوس بعض الأدباء والشعراء، وهو الزهد الذي يجسده أبو العتاهية خير تمثيل؛ بمعنى آخر ظهر في ذلك العصر تيار آخر معاكس لتيار اللهو والمجون، تميز بالزهد والتقشف» [(٤)].

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٠٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٠.
(٤) تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الأول، محمود علي عبد المعطي، ص ١٨.

ولكن المجتمع العباسي لم يكن كله مجونًا وزندقة، بل إنها شاعت في طبقة محدودة من الناس، فكان هناك من يحمل لواء التقوى والورع والصلاح، وسخروا أنفسهم لخدمة الدين، وضحوا بملذاتهم من أجل صلاح آخرتهم، وظهور تيارات مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي أدت إلى ظهور تيار آخر مناوئ لتيار المجون والزندقة وهو تيار الزهد، والزهد في نظر الإسلام «أسلوب من الحياة يحياها المؤمن، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها، ومن النفس ومطامعها، وأخذ الإنسان نفسه بالمجاهدات الروحية والبدنية» [(١)].

ويتصور الأحنف أن الفقر كان سببًا في ظهور الزهد[(٢)]:

مَنْ لم يجِدْ من فقرِه هربًا ... فليهْجُرِ الدنيا إذنْ زُهدًا

فالزهد يقاوم التيارات المتطرفة، ويدعو الناس إلى التقوى والعمل الصالح، والابتعاد عن ملذات الدنيا الزائلة، فلجأ الكثير من الشعراء إلى دعوة المجتمع إلى الزهد، وسلك الأحنف ذلك المسلك فيقول[(٣)]:

عِظِ النفسَ أنْ تَصبُوْ إلى شهواتِها ... ولُمْها على التقصيرِ في خلواتِها
أخِفْهَا بباريها ويومِ معادِها ... لتُقلعَ عن عادَتِها وهنَاتِها
وعدها عن الله الجميل ووقها ... لظَى نارِه بالخَوْفِ من نَفَحاتِها

فهو يدعو الإنسان إلى عدم الاستجابة للشهوات، ومحاسبة النفس على التقصير، والخوف من الله، والتذكير بالآخرة وعذاب النار، وما ينتظره من الجنة ونعيمها.

وقد ابتعد الكثير عن الدين، وابتلوا بحب الدنيا والسعي وراء ملذاتها، والتكالب على الثروة والجاه، فكان شعر الزهد ردًّا قويا على الموجات الفاسدة، وأصبح أشبه بالوسيلة الإعلامية التي تحمل بين طياتها الوعظ والإرشاد، وبرز القصاص والوعاظ، وكانت المساجد عامرة بالعبّاد والنساك، الذين واجهوا الزندقة والانحراف، وهاهو الأحنف يلح بالدعاء،

---

(١) شعراء الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجري، علي نجيب عطوي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٠هـ، ص ٢٩.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٩.

ويكثر من الرجاء، ويطلب العفو من الله، يقول[1]:

إلهـــي إنْ تُعـــذّبني بـــذَنْبِي فذَنْبي عنـدَك الـذنبُ العظـيمُ
وإن تعفُو فعـنْ حلـمٍ وعلـمٍ تمـنُّ ومَنُّـكَ المـنُّ القـديمُ
وأنتَ بكلِّ ما قْـد كـان منّـي وما هـو كـائنٌ منّـي عَلـيمُ
فيـسِّرْ كلمـا يرضـيكَ عنِّـي فإنـك مُـنعمٌ بـرٌّ رحـيمُ
وقـوِّمني تَجـدني مُـستقيمًا بِمنِّـك أسـتجيبُ وأسـتقيمُ

فنلاحظ أن شعره يقترب من حديث الناس العادي الخالي من الجماليات والمحسنات؛ كيما تفهمه العامة والطبقات الشعبية.

ومما تقدم نجد أن هذه الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية التي شهدها العصر العباسي، والظلم الذي وقعت تحته كثير من فئات المجتمع الكادحة من قبل بعض الحكام، أدت إلى افتقاد الفرد للشعور بالأمان، وعمقت إحساسهم بالقمع والظلم، فانفصل الإنسان عن مجتمعه، وأوجد فجوة عميقة تفصل طبقات هذا المجتمع عن بعضها، فهذه الأوضاع المؤلمة تركت بصمتها على معظم الشعراء، الذين أطلقوا صرخاتهم معلنين اغترابهم عن هذا المجتمع.

(١) ديوان الأحنف، ص ٨١.

المبحث الثاني: العامل السياسي:

قامت الخلافة العباسية على أنقاض الدولة الأموية، واستولى أبو العباس السفاح عليها، فعمل على قتل الأمويين، وأخذ يتتبعهم بالقتل والتعذيب، وأعمل السيف فيهم حتى قضى عليهم، و لم ينج منهم أحد إلا من استطاع الهرب[١]، «فقد تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنتين وتسعين نفسًا عند نهر بالرملة وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم سماطًا فأكل وهم يختلجون تحته» [٢].

واستطاع الحكم العباسي أن يبسط نفوذه وسيادته، وتحولت الخلافة من دمشق إلى بغداد.

«وقد بدأ الحكم العباسي قويًّا في بسط سيادته وفرض إرادته، وقد أخذ العباسيون الشيء الكثير عن الفرس في تنظيم أمور الدولة، ودون أن ينقطعوا في نظام حكمهم عن نهج الأمويين، فكان توريث الخلافة ديدنهم» [٣].

ويقول الدكتور خفاجي: «كان للخليفة العباسي الرأي الأعلى، والسلطان الكامل، والكلمة النافذة، والرأي القاطع، وربما أوجس في نفسه خيفة من معاونيه من الفرس فيبطش بهم كما فعل المنصور بأبي مسلم الخرساني، وكما فعل الرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل» [٤].

وقد عانى الشعب من بعده عن السلطة الحاكمة، فلم يكن يصل صوتهم إليهم، لأن الخلفاء العباسيين أحاطوا أنفسهم «بنظام تشريفات معقد، مختفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة، ومتحذين كثيرين من الحجاب أو رؤساء التشريفات» [٥]، و لم يكتفوا بذلك فقد منح بعض الخلفاء العباسيين الفرس مكانة خاصة، وجعلوهم من المقربين إليهم «إذ كانوا هم

---

(١) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، ص ٩١.

(٢) البداية والنهاية، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ١٤١٩هـ، ١٣/ ٢٥٩ -٢٦٠.

(٣) تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الأول، د. محمود علي عبد المعطي، ص ١٦.

(٤) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٣.

(٥) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط١٦، ٢٠٠٤، الناشر: دار المعارف، القاهرة، ص ٢١.

الذين يستأثرون بشؤون الخلافة، ويرقون إلى أعلى المناصب، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام، وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية» (١).

و «كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل» (٢).

فتفضيل الفرس على العرب في أمور الدولة ولّد العداء الشديد بينهما، فقد تصدر هؤلاء الأعاجم شؤون الحكم في الدولة، وازداد نفوذ العنصر الأجنبي من الفرس والترك، وجرد العربي من كثير من السلطات.

لقد قاسى المجتمع من سيطرة الفرس، وتأذى الناس منهم أذى عظيمًا، ولم ينحصر تأثيرهم على الناحية السياسية، بل شمل نواحي الحياة المختلفة، وفي خلافة المعتصم تلاشى النفوذ الفارسي، واهتم بتقريب العنصر التركي، يقول محمود رزق: «طغى سلطان الأتراك على الخلافة، وعبثوا بالخلفاء، وصار الحكم لغير أهله من فرس وترك، وشاع الذعر والخوف، وأصبحت (سامراء) والكوفة، وبغداد والرصافة وباقي المدن والحواضر العراقية مظلمة الوجوه بعدما كانت منارات للإشعاع، فلا تسمع إلا عن وزير يقتل أو رشوة تدفع أو حقوق تغتصب» (٣).

وقد أثر الترك على حياة العرب في ذلك العصر، فالترك لم يكونوا «أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة، إذ كانوا بدوًا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة، ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب، ولا قواعد الملك والسياسة، إنما كانوا سكان صحار وقفار، وحرب وجلاد، وبأس ومراس» (٤).

«وكان من نتيجة هذه السيطرة المتجبرة والمزدوجة أن تدهورت الأمور في الدولة

---

(١) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ٢٣.

(٢) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف ، ط١٢، ٢٠٠١، الناشر: دار المعارف، القاهرة، ص ٩.

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، د. محمود رزق حامد، ٢٠١٠م، ط١، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ص ٢٨.

(٤) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، ص ١٠.

العباسية تدهورًا خطيرًا في شتى مناحي الحياة، وأطمع هذا الأمراء والولاة على الأقاليم، فظهرت حركات استقلالية في كثير من أجزاء الدولة» [١].

فاضطربت الحياة السياسية وعجت بكثير من الأحداث، وساءت العلاقة بين الحاكم والرعية، وأضمحل الأمن وأدت إلى ضعف أمر الخلافة، يقول الأحنف مصورًا ذلك في مقطوعة نظمها إثر القتال الذي وقع بين معز الدولة وناصرها[٢]:

معـــــزُّ الدَّولـــــةِ الوهنـــــاءِ يوهنُهـــــا ويُفْقِرهـــــا[٣]
وناصـــرُها علَـــى وجـــلٍ يزجِّيهـــا ويَحْـــصُرُها[٤]
فـــلاَ هـــوَ مـــؤيسٌ منـــها ولا الأقـــواتُ تُحـــدرُها
ولا هـــذا بقوَّتِـــه ولا ذَا بعـــدُ يَنْـــصُرُها
وأرواحُ العبـــادِ الجـــوْعُ نحـــوَ المـــوتِ يَحـــشُرُها
لقـــد تـــركَ الوجُـــوهَ الجـــوعُ تَعرفُهـــا وتُنكرُهـــا
ولـــيسَ لهـــا سِـــوَى الـــرحمنِ بعـــدَ الكـــسرِ يجبرُهـــا

وفي حوادث سنة ٣٣٥هـ «ملكت الديالم الجانب الشرقي -أي من بغداد، ونهبت سوق يحيى وغيره، فخرج الناس حفاة مشاة من بغداد إلى ناحية عكبرا هاربين، النساء والصبيان، فتلفوا من الحَرّ والعطش، حتى إن امرأة كانت تنادي في الصحراء: أنا ابنة فلان، ومعي جوهر وحليّ بألف دينار، رحم الله من أخذه وسقاني شربة ماء فما التفت إليها أحدٌ، فوقعت ميتة» [٥].

وقد عاش الأحنف في ذلك العصر الذي عصفت به الاضطرابات السياسية، وتكالبت

---

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي، محمد عبد العزيز الموافي، ص ٢٨.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٨٠.

(٣) معز الدولة: أحمد بن بويه الديلمي، ملك بغداد نيفًا وعشرين سنة، توفي سنة٣٥٦هـ، كما ورد في الديوان ص٢٨٠.

(٤) ناصر الدولة: الحسن بن عبد الله بن حمدان التغلبي، صاحب الموصل، توفي سنة ٣٥٨هـ. كما ورد في الديوان ص٢٨٠.

(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٤/ ١٩١.

فيه المحن، وشاعت الاختلافات المذهبية، فوقع أثره في نفس الشاعر، وتألم للناس الذين يقبعون تحت ركام الفقر، فالطفل قد أهزله الفقر، والشيخ أهلكه الجوع، والشاعر يدعو الله سبحانه أن يجلي عنهم هذه الكروب، ويكشف عنهم تلك المصائب، فليس لهم إلا خالقهم، يقول(١):

يا ربِّ أينَ عطاؤكَ الجزلُ ... ونوالُك المعْهودُ والفضلُ
أضحَى العبادُ وأنتَ رازِقُهُم ... ولكَ الجلالُ وحُكْمُكَ العدلُ
هلكى لفقدِ القوتِ ما لهمُ ... وِرْدٌ سواكَ دهاهمُ الَمْحلُ
صرعى ببابِك يسألونَ لهُم ... فرجًا وأنتَ لسؤلهم أهلُ
يَشكُو إليكَ الطفلُ فاقتهُ ... وإليكَ يَشكو جوعَهُ الكهلُ
يرجوكَ لا يرجْو سواك لِمَا ... قدْ ضلَّ فيه الرأيُ والعقلُ
فاكشفْ بجودِك صَرْفَ فاقتِنا ... واحلُمْ وإنْ أزرَى بِنا الجهلُ

ولا يغفل الشاعر عن مشكلات عصره وقضاياه، فالشاعر يخفق قلبه بمشاعر المجتمع الذي يعيش فيه، فكثرة المذاهب الدينية، وشيوع التعصب المذهبي يزعجه، يقول(٢):

فجاهِدْ وقلبْ كتابَ الإله ... لتلقَى الإله إذا مُتَّ بِهْ
فقدْ قلّدَ الناسُ رهبانهمْ ... فكلّ يجاهدُ عنْ مذهبِه
وإنِّي لأجهدُ في أن أرى ... ذوي الحقِّ فيهِ على موجبِه
فوجهُ الإلهِ لمنْ أمّه ... مبينٌ منيرٌ فمَا يشتبِه
وفيما نرَى عجبٌ غيرَ أنّ التفرّقَ في الدِّينِ من أعجَبِه

ويتضح موقف الأحنف عندما رأى بعض المسلمين يقربون النصارى، ويحاولون إعزازهم، فاشتعلت غيرته على دينه، فالإسلام هو أولى بالمنافحة والمناصرة، يقول(٣):

يا مَنْ أعزّ النَّصارى بابنِ جنسهِم ... يحْيى بن إسحاقَ بعدَ الذّلِّ والحربِ(٤)

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٥٤.
(٢) ديوان الأحنف، ص ١١٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٩٥.
(٤) يحيى بن إسحاق: لم أعثر على ترجمة له.

اغضب لدينك وامنَعْ منْ تهـضّمه فقد هـوى كلّـه للويـلِ والعطـبِ
وابعثْ له عادلاً تُرضَى خلائقُـه من خالصِ التركِ أو منْ سـائرِ العـربِ

ونتيجة للظروف السياسية والاقتصادية فقد عاش الأحنف مغتربًا متنقلاً، فقطع الفيافي وجاب الصحراء، بحثًا عن لقمة العيش، يقول[١]:

ألفـتُ التغـربَ والغربَـهْ ففـي كـلِّ يـومٍ أخـا تربَـهْ

هكذا كانت حياته مبنيّة على الرحيل؛ مما أفقده الأمن والاستقرار، وجعله يشكو الغربة ويقول[٢]:

وإلى الله أشتكي طـولَ شـوقي واغترابِي وللغريـبِ ارتمـاضُ[٣]
وأشـد الأشـياء أن معاشـي واحترافي علـى الإلـهِ افتـراضُ
حينَ لا جابرٌ لعظـمٍ مهـيضٍ[٤] لاْ ولاَ رائـشٌ ولا مُنْهـاضُ[٥]
أصبحَ الـدهرُ مثـلَ لجـةِ بحـرٍ ليس فيه للمعـتفينَ مَخـاضُ[٦]

فرحل إلى سامراء، وجنبلاء، والنهروان، ومفتح، وغيرها، ولم يطب له المقام فيها كلها، ولكن أكثر إقامته كانت في مدينة عكبرا.

وأقام في بغداد فترة من الزمان، ولم يكن برغبته، ولم يسكنها طلبًا لرزق، بل عاقه المرض ومنعه العرج، ويقول[٧]:

وما سكنْتُ إلى بغـدادَ مفتتحًـا بابَ المعيشةِ عن جهلٍ ولا مُـوْقِ
بل عاقني حَنَفُ الرجلينِ عن طلبي وجه المعاشِ بتغريـبٍ وتـشريقِ
بغدادُ دارٌ لأهـلِ المـالِ طيبـةٌ وللمفاليسِ دارُ الـذلِ والـضيقِ

---

(١) ديوان الأحنف، ص ١٢٣.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٣١٣.
(٣) ارتماض: قلق وتوجع وحزن. كما ورد في الديوان. ص٣١٣.
(٤) مهيض: هاض العظم: انكسر بعد الجبور. كما ورد في الديوان ص٣١٣.
(٥) منهاض: متحرك ومسرع لنجدتي. كما ورد في الديوان ص٣١٣.
(٦) مخاض: موضع يمشي فيه. كما ورد في الديوان ص٣١٣.
(٧) ديوان الأحنف، ص ٣٧٢.

دارُ النّعيمِ ولكنْ أهلُهـــا عَـــدَلوا عن العُلومِ إلى سُخفٍ وتـــصفيقِ
أمسيتُ فيها مضاعًا بين ســـاكِنها كأنني مُصحفٌ في بيتِ زنـــديقِ

فالشاعر لم يكن سكنه ببغداد نابعًا من رغبته؛ بل الذي منعه من السفر والانتقال هو حنف في قدمه، فبغداد لا تناسب المساكين أمثاله، وذلك لغلاء المعيشة فيها، وأن الناس تركوا العلوم النافعة، واهتموا بسفاسف الأمور، ورسم الشاعر لنفسه صورة المغترب وسط الزخم الهائل من الاختلافات المذهبية.

فالأحنف يتألم من قلة المال والاغتراب، فهو يعيش في مجتمع مفكك لا يعرف للوفاء طريقًا إذ يقول(١):

أنـــا في خلـــةٍ، وقلّـــةِ مـــالِ واغتـــراب في معـــشرٍ أنـــذالِ

ولعل المعاناة تبلغ ذروتها حين يفقد الإنسان روابط الإخوة والصلة، التي تربطه بأبناء مجتمعه، فيشعر أنه منبوذ، وهذا مصير صعب كان العكبري من خلاله يحسد حشرات الأرض، ودوابها، لأنها أحسن حالا منه حيث يقول(٢):

العنكبوت بنت بيتًا علـــى وهـــنٍ تأوي إليه ومـــالي مثلَـــه وطـــنُ
والخنفساء لها من جنسها ســـكنٌ وليس لي مثلها إلفٌ ولا ســـكنُ

فالعنكبوت نسجت من خيوطها بيتًا يحميها، وهو كالوطن بالنسبة لها، وأنا لم أستطع أن أجد بيتًا ألوذ إليه ويحميني واتخذه وطنًا لي، وكذلك الخنفساء استطاع مجتمعها أن يوفر لها من تسكن إليه، فتلك صورة مريرة موجعة بثتها لنا مشاعر ملتهبة من سوء الأوضاع وفساد الأحوال.

ولعله قد تبين من خلال ما عرضناه من أحداث تاريخية، ما وصل إليه وضع المجتمع في هذا العصر، وما قاسوه من اضطرابات سياسية، وما نتج عنها من فتن وثورات، أثرت في أفراد المجتمع وتمخض عنها الخوف والقلق، وأدت إلى اغترابهم.

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٠٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٤٣.

المبحث الثالث: العامل الاقتصادي:

تأثرت الحياة الاقتصادية في العصر العباسي بالواقع السياسي، فالاضطراب السياسي واختلال البنية الاجتماعية تركت بصمتها على الوضع الاقتصادي، فلم يحقق الحياة الكريمة لأطياف كثيرة في المجتمع، فقد حظي بها الخلفاء والوزراء ومن يتصل بهم، أما أكثرية الشعب فعاث بهم الفقر والحاجة.

وكان الاقتصاد في العصر العباسي كما يذكر جرجي زيدان: «يرجع إلى أحد عشر (مصدرًا) وهي: الصدقة أو الزكاة، الجزية، الخراج، المكوس، الملاحات والأسماك، أعشار السفن، أخماس المعادن أي المناجم، المراصد، غلة دار الضرب، المستغلات، ضرائب الصناعة» [(١)].

«ويعد الخراج أهم مصادر الجباية؛ وذلك بسبب سعة المملكة العباسية، وانصراف الناس إلى العمل وإصلاح الأراضي، والعناية بالزراعة، يضاف إلى ذلك أن نفقات الدولة العباسية في عهد القوة لم تكن مرهقة لخزينتها لسببين، أحدهما: قلة عدد موظفيها، والآخر يرجع إلى ما اشتهر به الخلفاء الأوائل من اقتصاد وتدبير، ولما كانت قبضة الخلفاء قوية، والدولة فتية فإن الفساد الإداري لم يدّب بعدُ في صفوف عمالها، فكانت الأموال تجبى وترسل بأمانة إلى بيت المال» [(٢)].

وقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وتزايدت مواردها المالية، وتدفقت الثروات الطائلة التي كانت تأتي عن طريق الخراج والضرائب.

ولا شك في أن بعض الخلفاء العباسيين أحرزَ شيئًا من الإصلاح الاقتصادي، ومحاولة القضاء على الفساد خاصة في عهدَيِ المهدي والرشيد، ولكن هذا الإصلاح يبقى أقل كثيرًا مما ينبغي، ولا يعد شيئًا مقارنة بما يصل إلى خزينة الدولة من إيرادات كبيرة، وما حدث من تفاوت طبقي شديد في بنية المجتمع.

فالحياة الاقتصادية المزدهرة لم تستمر طويلاً، وسرعان ما تغيرت الأحوال فأصبح الاقتصاد يعاني من عدوى السياسة الفاسدة في عهد الضعف، إذ قلت الموارد، عندما

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ط٣، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٢١م، ٢/ ٧٠.

(٢) ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ٢/ ٧٢-٧٣.

انكمشت مساحة المملكة العباسية، وبعد أن انفصلت عن جسم الدولة أجزاء كبيرة في إفريقيا وخراسان، ومصر، وفارس، فنتج عن ذلك انخفاض نسبة الواردات، كما ساهم في ضياع ثروة البلاد ونثرها طمعُ القادة، وعبث جباة الضرائب في تحصيلها وتسديدها، إذ سلكوا مختلف السبل للتخلص من إعادتها للخزينة، وكانوا أحيانًا يضمون الأراضي الزراعية إليهم عن طريق الإلجاء، أو عنوة من أيدي أصحابها(١).

فأموال الدولة لم توزع توزيعًا عادلاً، فخيرات الدولة كان ينعم بها الخلفاء وحواشيهم، يقول أحمد أمين: «ولم تكن أموال الدولة موزعة توزيعًا متقاربًا، ولا كانت الفروق الطبقية طفيفة، إنما كانت هناك هوات سحيقة بين الطبقات، فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء، ورؤساء الأجناد وعمال الدولة، وهم ينفقون منه جزافًا على المقربين من أدباء وعلماء، ومغنين وجوار وأتباع، وطبقة تجار ومن إليهم، هؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى، وعامة الشعب يفشو فيهم الفقر والبؤس» (٢).

فالخلل الاقتصادي أثر في بنية المجتمع، فكان هناك تفاوت بين طبقات المجتمع، فطبقة تنعم برغد العيش وتنفق الأموال الطائلة على ملذاتها، وطبقة تعيش تحت ركام الفقر، فكان هناك إجحاف في حق الشعب «وكان توزيع ثروة الدولة قد أدى إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين: إحداهما مُستغلة، وهي طبقة الخاصة، وتضم عادة الملك وحاشيته من الوزراء وكبار القادة العسكريين، ومن لفَّ لفهم، وانتمى إليهم من كبار الإقطاعيين والتجار وبعض الشعراء، والمغنين الذي ارتفقوا بخدمة الطبقة الخاصة.

أما أخراهما: فهي طبقة العامة التي عانت من استغلال الفئة الأولى وجورها كثيرًا، وتضم شرائح اجتماعية متنوعة: من الزراع، والفلاحين، وصغار التجار، والصناع والكادحين» (٣).

ويصور لنا الأحنف حاله في يوم العيد فيقول(٤):

---

(١) ينظر: في تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، ٢/ ١١٩-١٦٨.

(٢) ضحى الإسلام، أحمد أمين، بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت، ١/ ١٢٧.

(٣) أدب الكدية في العصر العباسي، أحمد حسين حسن، ص ٣٣.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٣٠٦.

كُلُوا واشربُوا في عيدِكم وتمتّعــوا فها أنا عــارٍ مــا علــيّ لبــاسُ
أبي وأبــوكُم آدمٌ غــير أنكــم حظيتم به دوني فلــيس مِــساسُ
يُسرُّ أناسٌ بالغِنى يــوم عِيْــدِهم وتَحزَنُ بــالفقرِ المُبُــرِّحِ نــاسُ

فهناك من يستبشر بقدوم العيد، ويلبس الجديد ويأكل أصناف الطعام، وفي الضفة الأخرى وجه بائس لم يتذوق طعم العيد، فهو لا يملك من اللباس ما يستر جسده، ولا من الطعام ما يسد جوعه، فهذه الأبيات تقدم لنا صورة واضحة وجلية لطبقات المجتمع وتفاوتها المعيشي، وأن هناك من يعيش حياة الترف والبذخ، ومنهم من يتجرع مرارة الفقر والحرمان.

وبالنسبة للرواتب فيقول إبراهيم الكروي «وقد خصص للوزراء راتب شهري حدده الصابي، بسبعة آلاف دينار وهذه الرواتب أخذت تزداد على ما يبدو وخاصة في العصور العباسية المتأخرة حتى أصبحت عشر غلات الأرض، ولكن على الرغم من ذلك نرى أن ثرواتهم أصبحت طائلة جدًّا، ويبدو أن بعضها قد جمع بطرق غير شرعية، منها ما كانوا يستولون عليه من أموال الخراج التي ترد إلى الديوان، أضف إليها الهدايا والرشاوى التي يضطر كثير من عمال الولايات وموظفي الدولة إلى تقديمها إليهم حتى يثبتوا في ولايتهم ووظائفهم» [١].

وإن ما يكسبه الوزراء بهذه الوسيلة كان يطلق عليه (مرافق الوزراء) [٢].

وقد ظهرت صورة أخرى لابتزاز الأموال، وهي مصادرة أموال المغضوب عليه؛ فإذا غضب الخليفة أو أحد وزرائه على خصمه السياسي، سارع إلى مصادرة أمواله، فعندما قتل الخليفة المأمون وزيره الفضل بن سهل (أخذ منه عشرة آلاف ألف دينار) [٣]، وأخذ المعتصم من وزيره الفضل بن مروان (ألف ألف دينار، وأخذ أثاثًا وآنية بألف ألف دينار) [٤].

«وفي الحقيقة أن هذه المبالغ العالية التي صادرها واستولى عليها الخلفاء من وزرائهم في

(١) طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، إبراهيم سلمان الكروي، ٢٠٠٨م، مركز الإسكندرية للكتاب، ص ١٩.

(٢) التمدن الإسلامي، زيدان، ٢/ ١٧٠.

(٣) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى ، ط١، القاهرة، ، ٢/ ٢٣٣.

(٤) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣/ ٢١٤.

ذلك العصر، إن دلت على شيء فهي تدل على مدى الاستغلال، وانتشار الرشاوى بين رجال الدولة، خاصة عندما يكون الخليفة منصرفًا إلى لهوه وملاذه، وتاركًا الأمور في البلاد ولا سيما الشؤون المالية منها بيد وزيره» [١].

ويبدو أن الكتاب كانوا يجمعون أموالاً ضخمة عن طريق الاختلاس والرشاوى، نظرًا لمكانتهم عند الخلفاء وتوليتهم رئاسة بعض الدواوين الخاصة بالمالية، وممّا تجدر الإشارة إليه، أن كتّاب الدواوين ليسوا سواء في المنـــزلة، بل هم في درجات ومراتب متفاوتة، وفقًا لطبيعة العمل والديوان الذي يعمل فيه.

فقد ذكر أنه في سنة ٢٢٩هـ «حبس الواثق الكُتَّابَ وألزمهم أموالاً عظيمةً، وأخذ من أحمدَ بن إسرائيل ثمانينَ ألفَ دينارٍ بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهبٍ كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينارٍ، ومن إبراهيم بن رباح وكُتابهِ مائة ألفِ دينارٍ، ومن أحمد بن الخصيب وكتابهِ ألفَ ألفِ دينار، ومن نجاحٍ ستينَ ألفَ دينارٍ، ومن أبي الوزير مائة ألفِ دينار وأربعينَ ألفَ دينارٍ» [٢].

وكان المؤدبون يتقاضون رواتب كبيرة لقاء تعليم أولاد الأغنياء والموسرين، فقد ذكر الجاحظ[٣] بقوله: «يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا...وهو لا يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهم، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألفي درهم».

وحقًّا كان الشعب يحتمل الكثير من المعاناة، فهو رمز للاستغلال بأبشع صورة وللمصادرة والاحتكار؛ مما أدى إلى تعطيل الأسواق، وإغلاقها، وهذا ما قاد إلى اختفاء المؤن أملاً في ارتفاع أسعارها، وقد اجتاح الغلاء ساحة المجتمع حتى شمل ضروريات الحياة، يقول ابن كثير: «ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة وفيها غلت الأسعار، فاضطربت العامة وعدوا في ذلك اليوم -وكان يوم الجمعة- على الخطيب، فمنعوه الخطبة، وكسروا المنابر، وقتلوا

(١) طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، د. إبراهيم سلمان الكروي، ص ٢٠.

(٢) الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ٦ /٨٧.

(٣) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ١/ ٣١٧.

الشرط، وحرقوا جسورًا كثيرة...» [(١)].

وقد عبر الأحنف عن شيوع الفقر وغلاء الأسعار بقوله[(٢)]:

فقــــــرٌ مقــــــيمٌ طـــــــارقٌ   أصـــبحتُ أبكـــي مـــن عذَابِـــهْ
وغـــــــلاءُ ســـــــعرٍ قاتـــــــلٌ   في كـــــل يــــومٍ بانقِلابِــــــه

ويقول سلطان السلطان و«نتج عن الأحداث السياسية المتشابكة، والخلافات في الحكم، وقيام دويلات وسقوط أخرى، والحروب المتصلة بين تلك الدويلات، والصراع مع الروم وغيرهم، نتج عن كل ذلك ضعف في الموارد الاقتصادية، وشح في الأقوات والأرزاق، وانشغل الناس عن استصلاح الأرض وزراعتها، فقلت المؤن، ونفدت السلع، وشكا الناس الفقر والحاجة، إضافة إلى ما حدث من زلازل وأمراض، وقحط وجدب» [(٣)].

كما أن الفساد الاقتصادي قد أثقل كاهل الطبقات الكادحة، فهم يكابدون الحياة، ويقاسون من شظف العيش، فيكويهم الحر ويلفح وجوههم، فيفرون منه إلى الماء، فلا يجدون إلا ماءً حارًّا، بينما ينعم الأغنياء بالماء المثلج، والنسمات الباردة، وفي ذلك يقول الأحنف[(٤)]:

الناسُ في الحـــرِّ في خـــيشٍ وفي نعـــمٍ   ونحنُ في الحرِّ في القيعانِ كالهـــدفِ
يُسقونَ في الخيشِ بالموزونِ إن عطِشوا   ماء الثلوجِ وماءَ المـــزنِ في لطـــفِ
ونحنُ نشربُ ماءَ السَّجلِ من عطـــشٍ   شربَ الكلابِ بلا كـــوزٍ لمغتـــرفِ
فـــإن ســـكنَّا بيوتًـــا فهـــي مقفـــرةٌ   أو في المساجدِ أو في غامضِ الغُرفِ

وبقدر ما بلغت الطبقات الثرية من رغد العيش وعلا وجوههم آثار الترف، فقد هوت الطبقات الفقيرة في القاع، واحتاجت إلى لقمة العيش فلم تجدها، وسكنوا القصور الشاهقة، بينما غيرهم لا يجد منـــزلاً يسكن فيه، يقول الأحنف[(٥)]:

---

(١) ينظر: البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، ١٧/ ١٣٣.

(٢) ديوان الأحنف ، ص ١٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٨.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣٨٨.

بـــــــــيتي إذا أبــــــــصــرتَهُ أبـــصرتَ قارعـــــةَ الطريــــقِ

ويصف الأحنف غرفته التي يسكنها، فهي تنبعث منها الروائح الكريهة، وتشتكي عينه من الرمد، ولا يستطيع أن يسير فيها إلا حانيًا ظهره؛ لئلا يرتطم رأسه بالسقف، ولا يستند على جدرانها؛ لأنها تهتز وتتحرك، فهي مصنوعة من الشجر يقول(١):

أصمٌّ عن الداعي إذا ما دخلتُهـــا وأعمشُ من ريحِ الكنيفِ وأرمـــدُ

وما قمتُ فيها قائمًا مذْ ســـكنتها وأني متى رُمـــتُ القيـــامَ لأمهـــدُ

كأنِّيَ شيخٌ قدْ حنَى الدّهرُ ظهره فطورًا تـــراه راكعًـــا ثمّ يـــسجدُ

وحيطانها الأخصاصُ تهتزُّ كلمَـــا تحركتُ فيها والكواشِكُ(٢) مُيّدُ(٣)

وقد أبصرتْ عينايَ فيها ضفادعًا وهذا منَ الإدبارِ شـــؤمٌ مؤكـــدُ

والأبيات السابقة وثيقة خطيرة على تدهور حياة المواطنين العباسيين، إن البيت الذي تصفه الأبيات السابقة إدانة ساطعة للحكم والحكومة العباسية التي أهملت الإنسان رأس مالها وأحد أهم مصادر شرعيتها، والأبيات السابقة ليست حكمًا بالغيب على الدولة العباسية بل شاهد وشهادة من أحد شعراء ذلك العصر، فالتفاوت الاقتصادي أدى إلى تفاوت طبقي شاسع بين أطياف المجتمع، ففئة تغرق في النعيم، وفئة تغرق في الفقر، وأسفر ذلك عن النفور من المجتمع والسلطة، وكان سببًا في ظهور الاغتراب بين طبقات المجتمع.

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٦.

(٢) الكواشك: مفردها كوشك، وهي كلمة فارسية معناها، القصر والبرج والكوخ. كما ورد في الديوان ص١٩٦.

(٣) ميد: مضطربة متمايلة. كما ورد في الديوان ص١٩٦.

المبحث الرابع: العامل الثقافي:

على الرغم من الفساد السياسي والاقتصادي الذي خيم على العصر العباسي إلا أن هناك جانبًا مشرقًا ومضيئًا، يتمثل في الثقافة والحضارة التي آلت إليها الدولة العباسية، و «من اللافت للنظر أن الدولة العباسية التي أصاب معظم عصورها ضعف سياسي، وعمها كثير من الظواهر الاجتماعية الشاذة؛ قد تحقق فيها أكبر نهضة ثقافية شهدتها الحضارة الإسلامية، ولعل من أهم الأسباب في ذلك الحرية التي شملت جوانب كثيرة من الحياة، ومنها جانب البحث العلمي والتجديد الأدبي، وربما كانت العناصر المسيطرة على مقدرات الحكم قد قصدوا من فتح أبواب هذه الحرية، إعادة النظر في كثير من الأمور العقدية والسلوكية التي لما تتشربها قلوبهم بعد، و لم تتح لهم الظروف اتخاذ موقف مخالف لها، فضلاً عن الكشف عما تتصف به حضارتهم من جوانب مضيئة، تتيح لهم الإدلال على العرب بها، واتخاذها أسلحة ماضية في معركة الشعوبية» (١).

فالذي ساهم في تنوع الثقافاتِ الحريةُ الفكرية نتيجةَ امتزاج العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية، وقد أعطى الخلفاء لشعبهم حرية المذهب، فكان المجتمع العباسي يخطو باتجاه التطور والتحرر، فتمازج الحضارات والمذاهب الفكرية المختلفة كان له وقعه على الجو الثقافي، فصار هناك تداخل بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية؛ مما أثر على سير حركة الفكر والعلم والأدب.

ولقد ساهم الخلفاء بمسيرة الحركة العلمية والثقافية «وكان الخلفاء يهتمون بالعلماء ويحتفون بهم، فأغدقوا عليهم الأموال وقربوهم من مجالسهم، فكانت مجالسهم مسرحًا للمناقشات العلمية، والمناظرات الجدلية، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليدًا للدولة المهدي، فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد، ويقال: إنه وصل الأصمعي يومًا بمائة ألف درهم، وكان من المحظوظين لدى البرامكة، ويروى أن جعفرًا البرمكي وصله بخمسمائة ألف» (٢).

وهناك من الخلفاء من جعل مجلسه ساحة للجدل والمناظرة أمثال المأمون، فكانت

---

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي، د. محمد عبد العزيز الموافي، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٥٣.

(٢) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ١٠٢.

مجالسه في دار الخلافة ببغداد ندوات علمية في شتى علوم المعرفة، وفي ذلك يقول يحيى بن أكثم: «أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم» (١).

وكذلك مجلس سيف الدولة الحمداني، «فقد كان مقصد الوفود، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه، من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وكان أديبًا شاعرًا، محبًّا لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به» (٢).

وأيضًا يكمن خلف الازدهار الثقافي عوامل عديدة كما يقول محمود عبد المعطي: «ولعل أهم العوامل التي أدت إلى ذلك تعدد روافد الثقافة، ثم نشاط حركة الترجمة، وتعدد منابر التعليم، والحرية الفكرية والعلمية التي سادت في هذا العصر، ثم تبلور العلوم وظهور مبدأ التخصص، وكانت بغداد في العصر العباسي الأول مركز الثقافة في الدولة، وموطن العلم والأدب، وقبلة الأدباء والشعراء؛ فقد كانوا يرحلون إليها ليعرضوا مواهبهم وفنونهم، وكانوا يجدون هناك آذانًا صاغية ترهف السمع لهم، وعقولاً واعية تقدر نبوغهم وتعرف لهم فضلهم؛ فيصلون إلى الشهرة من أقرب طريق، ويسير ذكرهم في الآفاق» (٣).

فالترجمة كان لها الدور الفاعل في الرقي الثقافي، فتم نقل الكثير من الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وقد شجع الخلفاء العباسيون الأوائل حركة الترجمة، وأجزلوا العطايا والهبات للمترجمين، فكثرت الكتب المترجمة في مختلف العلوم والفنون والآداب عن الفرس والهند واليونان، ولمعت في الترجمة أسماء كثيرة كعبد الله بن المقفع وثابت بن قرة وإسحاق بن حنين وغيرهم(٤).

---

(١) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ١٠٥.

(٢) يتيمة الدهر، الثعالبي،١/٢٨.

(٣) دراسات في العصر العباسي الأول، محمود علي عبد المعطي، تجليات الإبداع الأدبي، ط١، ٢٠٠٩م، الرياض، دار النشر الدولي، ص ١٩-٢٠.

(٤) ينظر: تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الأول، محمود علي عبد المعطي، ص ٢١.

وكان لاستخدام الورق دور في نشر الثقافة ورواجها، إذْ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي في عهد الرشيد مصنعًا للورق ببغداد ففشت الكتابة فيه، بالإضافة إلى «تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات، وقد شيدت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هي دار الحكمة، واهتمت بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية، فكانت هذه المكتبة بمثابة الجامعة لطلاب العلم والمعرفة» [(١)].

ولم يكن حب العلم هو الدافع الوحيد وراء اهتمام الخلفاء والوزراء، بل «تعدد مراكز الحكم في الدولة ساهم في الرقي الثقافي، فكان التنافس شديدًا بين الأمراء والوزراء في تشجيع العلم والعلماء، فلم تكن بغداد وحدها مركزًا للحركة العلمية والأدبية والفكرية، بل ظهرت الري وبخاري، وغزنة وحلب، والموصل والقاهرة، وغيرها من العواصم التي نافست بغداد» [(٢)].

فمسيرة الحياة الفكرية والثقافية التي شهدها المجتمع العباسي خلفت لنا كمًّا هائلاً من التراث العربي في شتى العلوم والمعارف، فنجد كثيرًا من المصادر اللغوية والأدبية التي ألفت في هذا العصر، وبزغ نجم العديد من العلماء واللغويين والأدباء وذاع صيتهم.

وأول من قرب أصحاب علم الفلك والتنجيم أبو جعفر المنصور، وكان «أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة، وكتاب السند هند، وترجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي بطليموس، وكتاب الارثماطيقي، وكتاب إقليدس، وسائر الكتب القديمة...» [(٣)].

ومما تقدم نستدل على مدى اهتمام الخلفاء ودعمهم للعلم والعلماء، ولكن ليس كل العلماء قد نالوا الحظوة والمكانة عند الخلفاء، فبعضهم عانى من التهميش والفقر والعوز، فوجد نفسه غريبًا بين قومه وأهله، ومن هؤلاء شاعرنا الأحنف العكبري، حيث يقول[(٤)]:

---

(١) ينظر: العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ١٠٣.

(٢) ينظر: الاغتراب في العصر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، ص ١١٥.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن بن علي المسعودي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ٤/ ٢٥٠.

(٤) ديوان الأحنف العكبري، ص ٤٧٧.

تـــدانَى في التَّعـــرضِ للعلـــوْمِ وقـــوْلي بالحـــسابِ وبـــالنجومِ
طلبتُ العلـــمَ في زمـــنِ كـــريمٍ أســـرُّ بكـــلِّ ذي أدبٍ كـــريمِ
وخلفـــني الـــشَّقاءُ إلى زمـــانٍ أُعامـــلُ فيـــه ذا نكـــدٍ وشُـــؤمِ
فضاعَ العلمُ فيه وصـــارَ جهـــلاً وأضحَى الجهلُ كالأدبِ القـــديمِ
لأنَّ النَّاسَ صاروا فيـــه فوضـــى فـــصار الجهـــلُ يَعْلـــقُ بـــالحليمِ

فالعلم تحول من نعمة إلى نقمة، ومن مصدر للتنعم والحياة الرغيدة إلى مصدر للاغتراب والألم[١]:

قدْ كانت الآدابُ فيمـــا مـــضَى تعلِّـــمُ النَّـــاسَ فعـــالَ الكـــرامْ

فـــصارتِ الآدابُ في دهرِنـــا تفيدُ مـــا يـــأنفُ منْـــه اللّئـــامْ

ويصور لنا الأحنف موقف بعض أفراد المجتمع من علمه وأدبه، وسخريتهم اللاذعة منه، فيقول[٢]:

أشكو إلى الله ما ألقاهُ مـــن نفـــرٍ يرونَ علمي إذا ذاكـــرتُهم خرفَـــا
إن قلتُ قولاً حكيمًا قالَ قائلـــهُم لقمانُ صـــيَّره مـــنْ بعـــدِه خلفَـــا
متى تمثلتُ عـــنْ فهـــمٍ وفلـــسفةٍ سبُّوا أبُقراطَ منْ جهلٍ وما وصـــفَا
أو فُهْتُ عنْ أدبٍ أو ذكرِ مكرمةٍ سبُّوا ابن قيسٍ وسبُّوا الشعرَ والحنفَا

مما جعله يفضل الاعتزال وهجرة فئة معينة من الناس، وقد اتصل ببعض علماء عصره وأدباء وقته، ومن أشهرهم عبيد الله بن محمد العكبري المعروف بابن بطة، واتصل كذلك بالحافظ أبي طالب أحمد بن نصر، وكان من المحدثين الفقهاء، وقد مدحه الأحنف بقصيدة طويلة، صور كثرة طلاب العلم الذين يفدون إليه لسعة علمه وثقافته يقول[٣]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٦٧.
(٢) المرجع السابق، ص٣٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٢.

وغاليتَ في علمِ الأسَانيدِ فاغْتدَتْ رِحَابُك في طُلابِهـا كالمواسـمِ
رأى مِنْكَ أصحَابُ الحديثِ مُوثِّقًا فقيهًا كريمًا مـن أنـاسٍ أكـارمِ

والتقى كذلك بالصاحب بن عبّاد في بغداد، وأنشده الأحنف من شعره، وأعجب به الصاحب، حكى ذلك الثعالبي بقوله «قرأت للصاحب فصلاً في ذكره فأوردته، وهو لو أنشدتك ما أنشدنيه الأحنف العكبري لنفسه، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام، وحسن الطريقة في الشعر لامتلأت عجبًا من ظرفه وإعجابًا بنظمه» [(١)].

وساهم الأحنف في تعليم الصبيان، مع أن الأجور كانت زهيدة، يقول[(٢)]:

غـلامٌ جـاءني وأرادَ مـني أُعلِّمُـه الكتابـةَ والـشُّطُورا
ووافقَـني علـى أجـرٍ يـسيرٍ أبيعُ بـه مـع العقـلِ الكـثيرا
فَقلتُ: وما مَعاشُك قـالَ: إنِّـي أحُوكُ، فقلـتُ: تُبلـيْني عَـذِيرا
أُعلِّـمُ حائكًـا وأبيـعُ عَقْلـي وآخُـذ نَـائلاً نَـزْرًا يَـسيْرَا

فالأبيات السابقة تبرهن على ما كان عليه الأحنف من علم وثقافة، واختلاطه بالعلماء، فهناك من الغلمان من يفد إليه ليعلمه الكتابة.

«ولعل الترجمة كان لها الأثر في شيوع الجدل في مباحث علم الكلام خاصة، ويراد به الجدل الديني في أصول العقيدة عند المسلمين وغير المسلمين، وقد اتسع ميدانه حتى شمل الكلام في سائر الملل والنِّحل» [(٣)]، وعلم الكلام كان يتطلب أن يكون أصحابه على دراية وعلم بالفلسفة، وما يتصل من علوم كالمنطق وغيره يتسلحون بهذه المعارف في الدفاع عن قضاياهم وعقائدهم، ولقد ذكر الجاحظ هذه الحقيقة عندما قال: «وليس يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكّنا في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتّى يكون الذي يحسن من كلام الدّين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة» [(٤)].

---

(١) يتيمة الدهر، الثعالبي، ٣/ ١١٧.

(٢) ديوان الأحنف ص٢٧٧.

(٣) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، محمد زكي العشماوي، الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د، ت، ص ٩٠.

(٤) الحيوان، الجاحظ: عمرو بن بحر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٣٢٢.

فظهور تيارات دينية مختلفة يتطلب من المسلمين التصدي لها والرد عليها، وإقامة الحجة عليهم، و «مهما يكن من شيء، فقد ازدهرت النهضة الثقافية في هذا العصر ازدهارًا بالغًا، وتنوعت الروافد الثقافية التي غذَّت هذه النهضة ونشأ عن امتزاجها مزيج ثقافي جديد، أهم ما يلاحظ عليه أنه على الرغم من عمق التأثيرات الأجنبية وتنوعها فإن الحضارة العربية لم تقف منها موقف السلب والانفعال، بل كانت إيجابية فاعلة، بحيث انصهر في بوتقتها هذا المزيج الثقافي الضخم فأثرت بعضه وأضافت إليه، وعدّلت بعضًا آخر أو رفضته، حتى خرج من هذه البوتقة في النهاية ما يحق لنا أن نطلق عليه اسم الحضارة الإسلامية التي عبرت عن روح العصر، وعكست مثله وقيمه، وجسدت خصائص الأجناس العديدة التي انضوت تحت لوائها» [(١)].

فبعد أن كانت ثقافة العرب بسيطة ببساطة حياتهم، لا تتجاوز حدود الصحراء، لما جاء الإسلام أضاء لهم عقولهم، وأنار تفكيرهم، فدفعهم للعلم والمعرفة، ودخلت عناصر مختلفة الإسلام، فأرادت أن تتعلم لغة القرآن و «لقد أحدث الإسلام من البداية امتزاجًا قويًّا بين هذه العناصر التي أسرعت إلى تعلم لغة دينها، حتى سادت العربية في أواخر القرن الأول، ليس بين المسلمين فحسب، بل بين من تبقى من هذه الأجناس على دينه، لدرجة يمكن معها القول: إن هذه الأجناس وإن لم تعتنق كلها الإسلام، فإن جميعها قد أصبح عربي اللغة والتفكير، والشعور والثقافة، والأدب والحضارة» [(٢)].

فاتصال العرب بالشعوب الأخرى وامتزاج الثقافة العربية بسيل من الثقافات الأجنبية، ساهم في التفاعل الفكري وأحدث تطورًا كبيرًا في العقل العربي، وزاد في نمو وعيه وإدراكه، وفي نفس الوقت زاد اغترابه، فعندما أصبح العربي أكثر وعيًا بما يحيط به، وبدأ يحلم بمجتمع مثالي يحقق له أحلامه، ولكن ذلك لم يتحقق له، فعاش غريبًا في وسط مجتمع يقال: إنه بلغ القمة من الحضارة والثراء، فكانت المسافات شاسعة بينه وبين أحلامه، ولم يجد من يصغي له فظل مغتربًا قلقًا.

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي، محمد عبد العزيز الموافي، ص ٥٤.

(٢) ينظر: العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ٩١.

الفصل الثاني

الاغتراب المكاني والزماني

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أهمية المكان والحنين إلى الوطن.

المبحث الثاني: الشاعر والموت.

المبحث الثالث: الشاعر وأحداث الزمان.

المبحث الأول: أهمية المكان والحنين إلى الوطن:

يشكل المكان بعدًا مهمًّا لدى الشعراء، فهناك رباط عميق يربط بينهما، فالحنين إلى الوطن متأصل في الإنسان منذ عهود بعيدة، فالشاعر الجاهلي وقف كثيرًا على الأطلال وتغنى بالديار، فالمكان هو الذي يعيش فيه الشاعر ويحتويه، فأصبح «المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات» [(١)]، فالاندفاع نحو المكان، والوقوف على دلالاته التاريخية والحضارية يجعل الشاعر أكثر صدقًا، وأعمق تعبيرًا.

«رأى بعض الأعراب ابنًا له يختطّ منـــزلا بطرف عصاه، فدنا منه، وقال: «أي بنيّ إنه قميصك، فإن شئت وسّعت، وإن شئت ضيّقت»، وفي حركة الأعرابي تلك جملة من الحقائق المرتبطة بفلسفة المكان، قد لا نجد فيها -لأول وهلة- سوى إشارة إلى السعة والضيق الماديين، ويقف نظرنا عند البيت، وقد تفسّحت أرجاؤه، أو ضاقت أقطاره، وغدت حرجة تعوق الحركة والانبساط، بيد أن التروي قليلا، وتجاوز المنـــزل إلى القميص، يكشف شيئًا جديدًا في معضلة المكان، مادام القميص ألصق الأثواب بجسد الإنسان، وألوط به، وكأن المنـــزل —وهو يكتسب خصوصية القميص- يصير امتدادا للجسد ذاته، يجد فيه نعت الانبساط السالف دلالة جديدة، تجعل راحة الجسد لا تقف عند حدود أعضائه، وإنما تمتدّ لتشمل المكان كلّه، بل وأكثر من ذلك، قد يكتسب المكان في أثر رجعي، من الجسد انبساطه الخاص، فتسري فيه أحاسيس صاحبه جيئة وذهابا، في تبادل عجيب يعطي للمكان حياة، يتعذر على النظرة العجلى استكناه أسرارها» [(٢)].

وهكذا (فعكبرا) [(٣)] عند شاعرنا الأحنف ليست مجرد ذكريات قديمة، وأيامَ لهو ومجون فحسب، إنما هي أرض سكنت بها الروح، وبها سكن المحبوب، وبها كل جميل وأديب،

---

(١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص ٢٧٩.

(٢) فلسفة المكان في الشعر العربي قـــراءة موضوعاتـــية جمالـــية، د. حبيب مونسي، من منشورات اتحـــاد الكتـــاب العرب دمشق، ٢٠٠١م، ص ١٧.

(٣) عكبرا: هي مدينة صغيرة على شرقي دجلة، في طريق الموصل، بينها وبين بغداد ســـبعة فراســـخ. كمـــا ورد في الديوان، ص ١٢٤.

فالاغتراب جعل من (عكبرا) في عين الأحنف المثل الأعلى الجمالي، فيقول[١]:

إنّي رأيتُ ومثلي منْ رأى عجبًا ... فظلَّ في حيرةٍ من ذلكَ العجبِ
رأيتُ في (عكبَرا) نشئًا كأنهمُ ... من حسنهِم فتنٌ صبتْ على لُعَبِ
مثلُ الطواويسِ إلا أنَّهم بشرٌ ... حلوا من الحسنِ في العالي من الرُّتب
أعداهم مُسْلِموهُمْ حُسنَ طبعِهِمُ ... والجارُ يأخذُ طبعَ الجارِ عن كَثَبِ
يا حبذَا (عُكبرا) أرضًا وساكنُها ... وما حوتْ من مليحِ الوجهِ والأدبِ

وفي بعض القصائد لم يكتف بذكر بلده، بل فصل في ذكر حواريها القديمة ومدنها، حيث يقول[٢]:

إذَا أنا جاوزتُ (البقيعَةَ) سالمًا ... وجاوزتُ (بارمَّا) [٣] فنعمَى أرومُها
وجاوزتُ (جسرَ النهروانِ) [٤] مشرقًا ... ووافيتُ (باجسرِي) [٥] ولاحتْ حجومُها
وخيَّمتُ أرضًا آمنَ الله أهلها ... وأوسعهَا خصبًا وعدلاً قسيمها[٦]

لقد بدأ واضحًا في الأبيات السابقة أن الأماكن التي ذكرها الشاعر هي الوطن، فكل من البقيعة، وبارما، والنهروان، وباجسري، والبقاع الخصيبة، والأراضي الواسعة... إلخ كل هذه تشكل موضوع الاغتراب؛ لأنها تشكل الوطن.

«فليس المكان إذن ذلك المعطى الخارجي المحايد، الذي نعبره دون أن نأبه به، وإنما المكان (حياة) لا يحده الطول والعرض فقط، وإنما خاصية (الاشتمال)، ما دمنا نجد في الاشتمال معنى اللباس، ومنه (الشّملة)، فالاشتمال تغطية وستر من ناحية، ومخالطة واندماج من ناحية أخرى، وكأني بالذين يدرسون الشخصية في معزل عن المكان والزمان، إنما يسلبونها شطرا ذا خطورة معتبرة في تحديد سماتها، وتشخيص سلوكها، وتحديد أهدافها

---

(١) ديوان الأحنف، ص ١٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٣.
(٣) بارما: جبل بين تكريت والموصل، وأيضًا قرية في شرقي دجلة الموصل، معجم البلدان، شهاب الدين الحموي، ١/ ٣٢٠.
(٤) النهروان: هي بقعة واسعة بين بغداد وواسط، المصدر السابق ٥/ ٣٢٥.
(٥) باجسري: بليدة شرقي بغداد، بينها وبين حلوان على عشرة فراسخ من بغداد، المصدر السابق ١/ ٣١٣.
(٦) القسيم: الذي يقسم الأشياء بين الناس، كما ورد في الديوان ص٤٦٣.

ومقاصدها، إذ العزل المتعسف للفرد عن مكانه، من قبيل التجزئة التي قد تقبلها عناصر العلوم الطبيعية الدقيقة، وترفضها عناصر العلوم الإنسانية القائمة على الكلية و (الاشتمال)»[١].

وإحساسه بالاغتراب جعله يحن للمدينة المنورة، وربما الاضطرابات السياسية والفساد الاجتماعي في بغداد دفعه لتذكر المدينة المنورة، مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وما كانت عليه الأمة الإسلامية من ترابط ووحدة، فهو يحن للعقيق، وإلى العيش في هضباته، ويشتاق لشربة ماء من عيونه، ويحن لأهله وناسه الطيبين، يقول[٢]:

رأتْ بارقا نحو (العقيق) [٣] فحنَّتِ ... وذكرها الشوق القديمَ فأنّتِ
تمنَّتْ رقيقَ العيشِ في هضباته ... وليسَ لها منْ عيشِها ما تمنَّتِ
وحنَّتْ إلى ماءِ العقيقِ وأهلِهِ ... حنينَ التي عَنْ طيّبِ العيشِ زلّت
على أنها الأيامُ إنْ هيَ عقّدتْ ... نعيمًا على قومٍ أعادتْ فحلَّتِ

وعندما يكون المكان هنا معادلاً للحياة وما بها من الصعاب، فقلبه يقفز من صدره من شدة الشوق عندما يتذكر ذلك المكان، ويتذكر أيامه الخوالي فيقول[٤]:

يقولونَ: في أرضِ الجزيرة[٥] مغنمٌ ... ورقةُ عيشٍ في المكاسبِ والشعرِ
فقلتُ: و (بارمّا) ومن دونِ قطعِه ... سباعٌ وأعرابٌ أولو قضبٍ بترِ
وقطعُ قفارٍ (بالبقيعةِ) [٦] كلّما ... تذكرتُها طارَ الفؤادُ عن الصَّدرِ

وهنا يذكر الأحنف صفات (عكبرا) وأهلها ليظهر بشكل خفي ما يعاني منه في الغربة، فلا معروف ولا فضل يقدم له من أحد، كما لا ينسى الفخر بموطنه الذي أضناه الشوق له

(١) فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، د. حبيب مونسي، ص ١٨.
(٢) ديوان الأحنف، ص ١٤٠.
(٣) العقيق: وادٍ في المدينة تغنى به الشعراء كثيرًا، كما ورد في الديوان ص١٤٠.
(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٢٥.
(٥) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام. كما ورد في الديوان ص٢٢٥.
(٦) النقيعة بالنون: أرض تنبت الشجر بين بلاد بني سليط وضبة، وفي الأصل المخطوط بالباء. كما ورد في الديوان ص٢٢٥.

فيقول[١]:

كفَى (عكبَرا) فخرًا بأنك شيخها وأنهضُ أهليها لرد المظالِم
وأحزمُهم رأيًا إذا ما رزيَّةٌ دهَتْ وألمتْ من خطوبٍ عظائِم

وعندما يشعر بالخذلان من أصحابه في ساعة الضيق، ويمزقه الإحساس بالضياع فلا بد أن يحس بغربته بينهم، وإن ذلك سيضاعف في نفسه لهيب الغربة والألم، يقول[٢]:

ولي في (عُكبَرا) إخوانُ صِدقٍ توافوا لي بأخلاقِ الظّرافِ
كَلامٌ طيبٌ وسلامُ سلمٍ رضَوا لي في الهديَّةِ بالكفافِ
ضياعُهم الكرومُ[٣] وهُمْ كِرامُ على التأكيدِ في لفظِ الخلافِ
فأيامُ الكُساحِ يقاربوْني ويمتنعُون أيامَ القطَافِ

وعلى الرغم مما لاقاه الأحنف من تنكر الناس له، وإحساسه بغربته بينهم، ظل وطنه همه الأول، فالوطن هو العزة والكرامة بالنسبة للشاعر، «قيل لأعرابي ما الذل؟ فقال التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان» [٤].

وهكذا نجد بكاءه المر، وإحساسه بالاغتراب والقلق، ونرى أشواقه مع هبوب كل نسيم، ولا يملك إلا أن يدعو ربه[٥]:

وإلى اللهِ أشتكي طوْلَ شوقي واغترَابي وللغريبِ ارتماضُ[٦]

«ولقد أحب العربي وطنه وكان يشعر بالحنين الدائم له، وللحياة فيه، وهو وإن عرف بالترحل والتنقل بسبب البداوة، إلا أنه كان يحن إلى وطنه، ولا ينسى موطنه القديم» [٧].

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٧.

(٣) الكروم: أشجار العنب. واحدة كرمة، كما ورد في الديوان ص٣٦٧.

(٤) المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ١/ ١١٨.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣١٣.

(٦) ارتماض: قلق وتوجع وحزن، كما ورد في الديوان ص٣١٣.

(٧) الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، الناشر: اتحاد منشورات العرب، دمشق -١٩٨٢، (ت-ط) ص٣٩.

والشوق لم يكن لـــ(عكبرا) فحسب، بل لكل مكان عشقه وعاش به، وترك به جزءا من حياته، فحمص كبغداد، فكلتاهما قد أضنتاه شوقًا وحنينًا حيث يقول[١]:

جرى دمعي منْها ارتياحًا وصـــبوةً إلى (حمصَ) يستدعيْه منْها نعيمُها
ويرتاحُ قلبي نحوَ بغـــدادَ للـــهَوى لشتانَ إذْ ضَمَّ الحبيـــبَ حريمُهـــا
وإنّي لأستهدِي الشمالَ سلامهمْ وينعشُ قلبي حينَ يأتِي نـــسيمُها

والحنين والشوق كان للوطن وللمكان، وللدار وللزرع، وللأهل وللأصحاب وللمعاملة الحسنة وللأخلاق الفاضلة، فالغربة جعلت من الأحنف محروما، فوحدة موحشة، ووطن مفقود، وثوب رث وحيد، ولعل أكثر ما يشده في أثناء اغترابه، في هذا العصر، أحبته ورفاقه؛ لأنه يرى أن شر البلاد بلاد لا صديق بها، ويعلن ذلك صراحة حيث يقول[٢]:

وحيدًا ليسَ لي في النَّـــاسِ خلـــقٌ ألـــوذُ بـــه لأنـــسٍ أو وصـــالِ
ولا أهـــلٌ ولا ولـــدٌ يرجّـــى ومـــا أنفـــكُّ مـــن ثقـــلِ العيـــالِ
ولا وطـــنٌ ولا دارٌ وكـــرمٌ[٣] ولا زرعٌ بـــــــسبخٍ[٤] أو دوالي[٥]
ولا مالٌ ولا ثـــوبٌ ســـوَى مَـــا على جـــسدي لبـــذلِي[٦] والجمـــالِ

فالمتأمل للأبيات السابقة يلاحظ مدى الغربة والألم الذي يعتصر الشاعر، فبدأ القصيدة بقوله (وحيدًا)، وهذه الكلمة تحمل في طياتها الكثير من معاني الغربة، ثم انتقل لتفصيل اغترابه بقوله: (لا أهل)، (ولا ولد)، (ولا وطن) ... إلخ، فقد حشد لنا ألفاظًا معبرة عن وحدته واغترابه.

وقد عانى من الوحدة وفقدان الرفيق والصديق، والناصر وأهل العشيرة، فازدادت همومه وتراكمت عليه، فما من مجير له أو مدافع عنه، إلا أن الشيء الوحيد الذي يخفف عنه ألم

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٩.
(٣) الكرم: شجرة العنب ويطلق على البستان. كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.
(٤) السبخ: الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.
(٥) الدوالي: جمع دالية وهي عذق بسر يعلق فإذا أرطب أكل، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.
(٦) البذلة والمبذلة من الثياب، ما يلبس ويمتهن ولا يصان، كما ورد في الديوان، ص ٤٠٩.

الغربة هو إيمانه بقضاء الله، وأن دوام الحال من المحال، حيث يقول[١]:

وإنّي وإنْ أصبحتُ في دارِ غُربــةٍ وحيدًا ومــالي ناصِــرٌ وعــشيرُ
ولا تتخطّانِي[٢] الهُمــومُ ولا أرى مجــيرًا[٣] ولا يــأوي إليَّ مُجــيرُ
فما أنا مِمَّنْ يمــلأُ الأمــرُ قلبــهُ لعلمِي بــأنَّ الــدائراتِ تــدورُ

وهذه الغربة ليست اختيارية، فقد أُكره عليها إكراها[٤]:

وفارقتُ مــنْ أهــواهُ كُرهًــا كــأنني أجــودُ بنفــسِي عنــدَ فرقتــهِ قهــرَا
ولمْ أرَ مثــل الــبينِ أقتــلَ للفتَــى ولا كــالهوَى حُلــوًا إذا ذقتــهُ مُــرًا
وسمتُ[٥] الثرى بالــدَّمعِ حتَّــى كأنمــا سِماكيَّةٌ[٦] رشَّتْ على عطــشٍ قَطْــرَا
فيا قلبُ صبرًا ما استطعتَ ومــنْ يُطــقْ على فقدِ من يهوَى وهجرانــه صــبرَا

وإن كانت الكدية صعبة ومؤلمة فالبعد قاتل، فكيف إذا اجتمع البعد مع الهرم، وتساقط الأسنان يقول[٧]:

فلــــوْ أبــــصرنا الخــــشنيُّ[٨] كالآطــــامِ[٩] في الخُلــــدِ
بِهَــــا ليــــلٌ بــــني الغُربــــةِ في الأعــــشاشِ كالأســــدِ
وقــــد عُــــدنا مــــنَ الكديــــةِ مقتــــولينَ بالبعــــدِ
يحيّــــي بعــــضنا بعــــضًا إذا مــــات مــــن الــــدَّردِ[١٠]

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٤٦.
(٢) تتخطاني: تتجاوزني، كما ورد في الديوان، ص ٢٤٦.
(٣) مجيرًا، أي يؤمنني مما أخاف وأكره، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك. كما ورد في الديوان، ص ٢٤٦.
(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٣٥.
(٥) سمت الثرى: أثرت في الأرض، كما ورد في الديوان ص٢٣٥.
(٦) سماكية: سحابة منسوبة إلى نوء السماك، وهو نجم معروف قل ما تخلف فيه الأمطار، كما ورد في الديوان ص٢٣٥.
(٧) ديوان الأحنف، ص ١٦١.
(٨) الخشني: الذي لا يسأل ولا يكدي، وهو عند المكدين عيب كبير. كما ورد في الديوان، ص ١٦١.
(٩) في الأصل، كالأطم وبه يختل الوزن. الأطم: القصر، وكل حصن مبني بحجارة، وكل بيت مربع مسطح، كما ورد في الديوان، ص ١٦١.
(١٠) الدرد: ذهاب الأسنان، كما ورد في الديوان ص١٦١.

ويشكل العامل الاقتصادي سببًا قويًّا من أسباب الغربة التي عانى منها الشاعر في هذا العصر؛ لأنهم يقولون: (من لم يرزق ببلدة فليتحول إلى أخرى)، ومن هنا طاف كثير من الشعراء في الآفاق بحثًا عن الحياة الكريمة، وهربًا من ذل الحاجة، وقد عبر الأحنف العكبري عن غربته التي قضاها ساعيًا وراء رزقه، فرأى الغنى في القناعة، والراحة في الاستقرار[١]:

إنّي سمعتُ بقومٍ أوطنوا هجـــرًا[٢] والدَّومتينِ[٣] وطابتْ عندهُمْ هجَرُ
باعوا المنازِل والأوطانَ وانتقلُـــوا سوءُ الجوارِ جلاهُمْ بعدَ ما صبروا
تقدَّسَ اللهُ فالأرزاقُ قد قُـــسمتْ ما حمَّ[٤] آتٍ ومَا لَمْ يقضِهِ عسرُ

ويدفعه الشوق إلى كثرة البوح والبكاء إثر صاحبته الراحلة التي لا يرى العيش حلوًا بدونها، ولا العراق عامرًا إذا لم تكن فيه، ولعل فراقها بلغ منه مبلغًا لم يعد معه شاعرًا متأملاً، يهتم بالصورة والتركيب، إذ جاءت بعض بكائياته قريبة من الكلام العادي حيث يقول: [٥]:

دعـــوهُ يبكـــي لفقـــد خلانـــه وهجـــرِ أحبابِـــه وأخدانـــهِ
جيرانـــهُ أوحـــشُوا منازلـــهُ فظـــلَّ يبكـــي لفقـــدِ جيرانِـــهِ
أشـــجانُهُ قيـــضَتْ لـــهُ تلفًـــا فصارَ يـــدعى قتيـــلَ أشـــجانه

وحين تتحول العنكبوت لمعادل موضوعي للشاعر، نستطيع أن نقدر مدى الألم الذي يكابد صدره من فقدان الوطن، وعندما يقارن نفسه بالخنفساء ويحسدها لما لديها من الأهل والأصدقاء، نستطيع أن نشعر بمرارة الغربة والألم الذي يكتوي صدر شاعرنا؛ لفقده الأصحاب والخلان[٦]:

العنكبوت بنتْ بيتًا علـــى وَهـــنٍ تأوي إليهِ ومـــالي مثلـــه وطـــنُ

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٦٢.
(٢) هجر: ناحية البحرين كلها هجر، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.
(٣) دومة الجندل، ودومة غوطة دمشق، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.
(٤) حُمَّ: قدّر وقضي، كما ورد في الديوان ص٢٦٢.
(٥) ديوان الأحنف، ص ٥٠٤.
(٦) المرجع السابق، ص ٤٥٣.

والخنفساء لها منْ جنسها سـكنٌ وليس لي مثلها إلفٌ ولا سَـكنُ

ويزداد الاغتراب عمقًا إذا ابتعد الشاعر عن موطنه، فنراه يقول[١]:

أقمتُ (بجُنبلا) [٢] عشرين يومًـا وكنتُ وردتُهُـا فـوقَ اليفـاعِ
فكادحتُ الزمان أسًـى وضـرًّا مُضاع الحـظِّ ذا أدبٍ مـضاعِ
أذودُ النفسَ عن كـرم وجـود وأخفِضُ هـامتي بعـد ارتفـاعِ
أقاربُ أهلَهـا وأُزيـلُ طبعـي إلى لـؤمِ المـروءةِ والطبـاعِ
ولولا لـؤمُهم لحفظـتُ طبعـي ولكن لـستُ بالرجـل المطـاعِ
بلوتُ الناسَ في شـرقٍ وغـربٍ ورُمتُ العيش من كـل البقـاعِ
فلم أرَ في الزمانِ أخـسَّ منـهم وأروغَ في العيـانِ وفي الـسماعِ
هجرتُ مكارم الأخلاقِ كرهًـا لهـم لمـا أبـوا فيهـا اتِّبَـاعي
كتمتُ بليّتي وكَظَمـتُ غيظـي وغيظ القلب مـن شـرِّ المتـاعِ
تركتُ لهم لذيذَ العـيش كُرهًـا وقـنَّعني بقـسمِهم اقتنـاعي
مخافةَ خلطـة وقبـيحِ مـا هـم عليـه مـن الخيانـةِ والخـداعِ

فالأحنف غادر مدينته (عُكُبرا) إلى (جُنبلا)، وأقام بجُنبلا مدة عشرين يومًا، فلم يكن يشعر بالغربة المكانية فقط، بل بغربة مركبة، فتداخلت الغربتان المكانية والاجتماعية، فقوله: (أقمت بجنبلا) هنا إشارة إلى الغربة المكانية، وقوله: (فكادحت الزمان أسى وضرًّا) هنا يصور مدى ألمه وإحساسه بالاغتراب، ويقول: (أذود النفس عن كرم وجود)، و (أخفض هامتي بعد ارتفاع)، فهنا قمة الاغتراب عندما ينسلخ الشاعر عن ذاته الأصلية، فهو يعاني من قهر الغربة، فأهل (جنبلا) يتصفون بلؤم طباعهم، ورداءة أخلاقهم، وهو إنسان عربي أصيل، متمسك بصفات العروبة من الكرم والجود، ويقول: (أقارب أهلها وأزيل طبعي إلى لؤم المروءة والطباع)، مما جعل الشاعر يشعر بالغربة، ويجاريهم بأخلاقهم، فهم أساؤوا معاملتي فتحولت إلى شخص لئيم، وقليل المروءة.

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٢٥-٣٢٦

(٢) جُنبلا: بلدة بين واسط والكوفة. كما ورد في الديوان ص١٢٥.

وقد وصل شاعرنا إلى مرحلة الشيخوخة، وكان يظن أن أحواله سوف تتغير وتتبدل، ولكن ظنه قد خاب، فقد أصابه الكبر، وهو ما زال يعاني من الاغتراب، يقول[١]:

كـــــل يـــــوم إلى ورا صـــرت أمـــشي كمـــا تـــرى
ولـــــشؤمي وحـــــــرفتي شــــخت في أرض (عكـــبرا)

وعندما يُسأل عن وطنه فإن تعلقه بوطنه يزداد، والعربي لا يستغني عن بلده أبدًا، مهما كان ذلك الوطن؛ لأن علاقته بأرضه علاقة سامية، وبينهما أنبل ما يكون من الحب، وبهذا المعنى يقول[٢]:

ومُسائلٍ حدبٍ علـــيَّ يقـــولُ لي بتـــودُّدٍ وتَعطُّـــفِ الإشـــفاقِ
ماذا دعَاك إلى الُمقام (بعُكـــبرا) وعَدلتَ عن وطنٍ (بباب الطاقِ)
وتركتَ (بابَ الكرخِ) وهو نهايةٌ في الحسنِ فيه طرائـــفُ الآفـــاقِ
من كُلِّ ذي أدبٍ علـــيمٍ فاضـــلٍ حَسَنِ الخلائقِ طـــاهرِ الأعـــراقِ
قلتُ: اكتسبتُ بها اعتبارًا نافعًـــا وعرفتُ وجهَ مساوئِ الأخـــلاقِ
فعدلتُ عمَّا قد عَرفـــتُ طريقـــهُ مِنهُم إلى خَلـــقٍ بـــلا أخـــلاقِ

وتشتد وطأة الاغتراب عندما يكون الشاعر في وطنه وبين أهله، وقد عدلوا عن طلب العلم إلى اللهو والاستمتاع بملذات الدنيا، فيقول[٣]:

(بغداذُ) دارٌ لأهلِ المـــالِ طيبـــةٌ وللمفـــاليسِ دارُ الـــذُّلِّ والـــضَّيق
سكنتُ فيها بأرضِ الخلدِ في وطنٍ لآلِ ساســـان في قـــومٍ مـــداليقِ[٤]
في مدةٍ حَلَفتْ فيها الـــسماءُ لنـــا أن لا نرى الشمسَ فيها رأي تحقيقِ
فأقسمَ الغيمُ من حُرفي ومن نَكَدي أن لا يُفتَّرَ عـــن غمِّـــي وتَعـــوِيقي
دارُ النعيمِ ولكن أهلُهـــا عَـــدلُوا عنِ العلومِ إلى ســـخفٍ وتـــصفيقِ
أمسيتُ فيها مضاعًا بين ســـاكنِها كأنَّني مُصحفٌ في بيـــتِ زنـــديقِ

(١) ديوان الأحنف ص٢٨٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٢.
(٤) مداليق: متقدمون كما ورد في الديوان، ص ٣٧٢.

فبغداد هي عاصمة الخلافة، فهي رمز من رموز الحضارة والرقي، وقد تأثر أهلها بالحضارات والثقافات المختلفة، فهي لا تناسب الشاعر فهو رجل فقير وبسيط، فالمعيشة في بغداد في غاية الصعوبة بالنسبة للشاعر، وعبر عن عمق إحساسه بالاغتراب في قوله:

أمسيتُ فيها مضاعًا بين ســـاكِنِها كأنَّني مُصحفٌ في بيتِ زنـــديقِ

وتعلو صرخات الاغتراب إذا ابتعد عن موطنه، فقلبه وعقله مع وطنه، يقول[1]:

كفى عجبـــا أني مقـــيم ببلـــدة وقلبي بأخرى مستهام[2] وملـــهجُ

وحسبك من ضر وبؤس بمن سرى غريبا فريدا مفلسا وهـــو أعـــرجُ

وهكذا نلحظ أن الأحنف العكبري قد وقف أمام الاغتراب المكاني وقفات مطولة عبر فيها عن صورة الوطن في ذاته، كما عبر عن أحاسيسه ومشاعره، تجاه الأهل والأحبة بأساليب شعرية متقاربة، ولغة شعرية بسيطة، مشحونة بألم الاغتراب والمعاناة، ومفردات نابضة بالشوق والحنين والحزن، فالتجربة الاغترابية وهموم الغربة وأوجاعها التي عايشها شاعرنا في هذا العصر دفعته للتمسك بالوطن.

(١) ديوان الأحنف، ص١٤٧.

(٢) قلب مستهام: هامَ يهيمُ هُيامًا، واستهيم فؤاده، فهو مُستهَامُ الفؤاد أي مذهبه. ورجل هيمان: محب شديد الوجد. لسان العرب، م/ ١٢، ص ٦٢٦، هيم. ملهج: مُولعٌ به، لسان العرب، م/ ٢، ص ٣٥٩. لهج.

الاغتراب الزمانِي:

إن العوامل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، في العصر العباسي، كان لها الدور الفاعل في إبراز ظاهرة الاغتراب عند شاعرنا الأحنف، كما وضحت ذلك في الفصل السابق.

وفي هذين المبحثين سوف أتحدث عن الاغتراب الزماني في شعر الأحنف العكبري، فالاغتراب الزماني تتضح معالمه داخل الوطن، وقد عبر كثير من الشعراء عن اغترابهم وهم في ظل أوطانهم، وفي ذلك يقول (عبده بدوي): «الاغتراب يمثل نزوحًا من نوع آخر، حتى ولو كان الإنسان يعيش في الوطن، فهو يرفض أشياء ويتحداها، ويختلف مع أكثر من أسلوب سيطر على الحياة، وإذا كان في بعض الأحيان لا يملك إلا الصمت، فإنه في أحيان أخرى لا يملك إلا أن يصرخ، أو يبوح، أو يئن، مع إحساس ضاغط بأن العالم من حوله لا يحس به، ولا يصغي للصراخ، والبوح والأنين، وفي ظل هذا يحس بالاختناق» [(١)].

وقضية الزمن وما تحمله من أحداث ومصائب قضية تؤرق الإنسان، فهي تتصل بحياته، فهو يمر بمراحل عمرية مختلفة، أولها الطفولة، ثم الشباب، ثم الشيخوخة والكبر، فكلما تقدم الزمن اقترب أكثر من نهايته، وهذا القلق والخوف صوّره لنا الأحنف في ديوانه من خلال حديثه عن الموت وعن أحداث الزمان، ومصائب الدهر.

(١) الغربة والاغتراب والشعر، عبده بدوي، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٨-٩.

المبحث الثاني: الشاعر والموت:

يعد الموت مصير كل إنسان على وجه الأرض، وفيه يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[١]، والموت ظاهرة حتمية على الأحياء، وهو كثيرا ما يشغل فكر الإنسان ويقلقه.

وقضية الموت ارتبطت بالشعر منذ العصر الجاهلي، فقد عبر الشعراء عن إحساسهم تجاه الموت، وما يعتريهم من خوف وقلق نحو مصيرهم المجهول، وكما يقول عبد الناصر هلال: «وارتبطت قضية الموت بالشعر أكثر من أي فن من فنون الأدب، فالشعراء نظموا قصائد منذ أقدم العصور تعبر عن قلقهم وخوفهم من الموت، أو التأمل فيه وإحساسهم بقدومه وطالما أن الشعر هو انعكاس الحياة على نفس الشاعر، فعالم الشاعر نسخة من نفسه المتشتتة، ومن طبع الشعراء أن يفرغوا بالكلمة شحنة المكبوت في النفس، فهم أقدر الناس تعبيرًا عن إنسانيتهم أمام الموت» [٢].

وعندما تتراءى صورة الموت أمام المرء، ويشعر أن الفناء سيقضي عليه، وأن جسده سوف تأكله الديدان، كما يقول العكبري[٣]:

كلْ قبلَ أن يأكلكَ الدودُ وأنتَ في الحفرة ملحودُ

فالشاعر الذي يفكر في الموت، ويشعر أنه قد اقتربت نهايته، فإن الإحساس بالموت يطغى على مشاعر السعادة لديه، وتثور في نفسه انفعالات متناقضة، إنه يخشى الموت، ويرغب في الحياة، ويشعر أنه لم يرتوِ من الحياة، وربما يكون خوفه من الموت ما هو إلا حبٌّ في الحياة وتمسكًا بها.

وليس هناك من يسلم من الموت كما يقول الأحنف[٤]:

هيَ الدَّارُ لم تضمنْ لحيٍّ سلامة منَ الموتِ والمكروهُ مِن نكباتِها
هي الدَّارُ أفنتْ معشرًا بعدَ معشرٍ تباعًا سِراعًا وهيَ في مهلاتِها

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣٥.

(٢) ينظر: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر، د عبد الناصر هلال، الناشر: مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥. (د، ت) ، ص ١٧.

(٣) ديوان الأحنف، ص ١٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٣.

هي الدَّارُ حقًّا أمَّنتْ أهلَ حربِهـــا وفي سلمها حربٌ لكل دُعاتِهـــا
هي الدَّارُ حقًّا أتعبتْ من أرادَهـــا وعادَت عَلى منْ نالَها بـــسماتِها
هي الدَّارُ إنْ لمْ يرحمِ الله تقتضِي عقابًا لِمنْ أومـــى إلى شـــهواتِها

ففي الأبيات السابقة يوضح لنا الأحنف رؤيته للحياة، فلا أحد يملك ضمانًا من الموت، ولا سلامةً من المصائب والنكبات التي تكدر صفو الحياة، فها هي مشاعر الاغتراب تتأجج في نفس الشاعر، فنجد في ألفاظه ما يوحي بالغربة كقوله: «الموت، المكروه، حرب، أفنت، عقابًا»، وأيضًا نرى تكرار كلمة (هي الدار) لتأكيد حقيقة الحياة.

وأن ما يواجهه الشاعر من ظلم اجتماعي وواقع مرير، زج به في غياهب الاغتراب، فمع تقدم السن والكبر يحتاج الإنسان إلى الاستقرار والشعور بالأمان، ولكن ذلك لم يتحقق للأحنف، فالكبر والفقر والمرض ظلت ملازمةً له، وإذا كان الأحنف يشعر بوحشة غربته وهو يتمتع بقوته، فإن هذا الشعور يبلغ أقصاه عندما يكبر ويدنو أجله فيقول(١):

ولَي حديثٌ سأبديْه وإن قصرتْ يراعتي عن مطاماتِي(٢) منَ الألَـــمِ
علـــوٌّ ســـنٍّ وإفـــلاسٌ ومغربـــةٌ مع ما دهيتُ به في الساقِ والقدَم
طورًا أعافَى وطورًا أشتكي سقمًا والموتُ يكمنُ بين البردِ والـــسقَم
والعيشُ في زمن أهلوهُ قدْ عـــدلُوا إلى المذاقِ وسوءِ الظنِّ والـــبرمِ(٣)

فالواقع الذي عاشه الأحنف، وما فِيه من فقر واغتراب ومرض، دفع بهيمنة الموت على تفكيره، فقد افتقد من يخفف عنه ألمه وغربته، فهو يرى أن هذا الزمن لم يعد مناسبًا له.

ولعل أكثر ما يُظهر الألم من الغربة والاغتراب هو المرض والموت، ففي المرض يحتاج الزوجة التي تسهر، والصديق الذي يزور، وفي الموت يفقد الأهل والأصحاب، ويصور الأحنف ذلك فيقول(٤):

---

(١) ديوان الأحنف ص٤٨٠.

(٢) مطاماتِي: المطَمَّة: كمُعظَّم: المطَوَّلُ. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، ت: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٨، ص ١٢٤٩.

(٣) البرم: السأم والضجر، كما ورد في الديوان. ص٤٨٠.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٤٣٥.

فمتى مرضتُ فخادمي نفسي فإنْ عَجَزَتْ تولاَّهـا بنـو أشـكالي
ومتَى أمـتْ فجنـازتي محفوفـةٌ بالُمـدْلقِيْنَ لأنهـم أمثـالي
من لي يُعزي إنْ هلكتُ و لم يَدَعْ صرفُ المنونِ عليَّ مـن عمَّـالي

والحياة تسير على وتيرة واحدة، ليلٌ ويعقبه نهار، وعمر الإنسان محدود، فلا تحزن لفوات أمر، فالحياة أشبه بلعبة القمار، كما يصور ذلك فيقول[١]:

حياتُـك ليـلٌ كلُّهـا ونهـارُ وعمـرُك فـانٍ والـشبابُ مُعـارُ
فلا تعتقدْ همًّـا لفـوتِ عطيَّـةٍ حياتُـكَ فـوتٌ والمعـاشُ قمـارُ[٢]
إذا أجدبت أرضٌ فدعهَا لأهلـهَا ففـي كـلِّ أرضٍ للمُحَـوِّلِ دارُ

فنرى أن الشاعر العباسي أطال التفكير في ذاته ومصيره، متأثرًا بالحضارات المختلفة والثقافات المتشعبة، فالإحساس بالغربة وقضية الموت ملازمان له، وهذا ما نلحظه في نصوص الأحنف حيث يقول[٣]:

قد صححَ العقلُ والتمييزُ والنظـرُ أنَّ المُـنى غـررٌ والمـوتُ مُنتظـرُ
هذا يقينٌ وهذا ربَمـا حجَبَـتْ عنهُ الخُطوبُ وصرفُ الدَّهرِ والحذرُ
فخذْ من الدّينِ والـدُّنيا بمقـدرةٍ جهدَ المقِلِّ إذا مـا أمكـنَ القـدرُ

«وقد أرّق الموت بال الإنسان، وشغل تفكيره المصيرُ المحتوم الذي أثار في أعماق نفسه المضطربة تساؤلات حائرة عن جدلية الموت والحياة، وسر الفناء، وغاية الزوال، وقد عبرت ثقافات الشعوب، وفلسفاتها، وأساطيرها عن قضية الموت بمستويات مختلفة، ونقلت كثيرا من التصورات عن طبيعة العدم والبقاء، وكان الشعر من بين الفنون الإبداعية قد حل خطرات فكرية، وتأملات ذهنية أطلقها الشعراء تعبيرا عن حقائق الوجود، وبانوراما الحياة والفناء» [٤].

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٢.
(٢) لا تعتقد: لا تجمع الهم في نفسك، القمار: هو أن يأخذ من صاحبه شيئًا فشيئًا في اللعب، كما ورد في الديوان.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٣.
(٤) خطاب الموت في الشعر الجاهلي، أحمد الحسين، مجلة نـزوى، مؤسـسة عمـان للـصحافة والنـشر، ص ٦،

http:/ / www. nizwa. com

وإذ تأملنا الحياة فما هي إلا موت إنسان وميلاد آخر، كما عبر عنه العكبري[١]:

ما أعجَبَ الدُنيا وأطرَفَ أمرِهـــا حيٌّ بمـــوتُ ونطفـــةٌ تـــستودعُ
هذا يمـــوتُ وذاكَ يولـــدُ بغتـــةً فالموتُ يحصدُ والمهـــيمنُ يـــزرعُ
والموتُ شـــخصٌ والمنايَـــا لجّـــةٌ والموتُ يخفـــضُ والمنايـــا ترفـــعُ

ففي الأبيات السابقة يتعجب من حال الدنيا، فهي لا تدوم على حال فدوام الحال من المحال، فكل حي سيموت ويبلى، فهذا تنتهي حياته بالموت، وهذه النطفة يبدأ ميلادها وهكذا هي الحياة، ونلاحظ تكرار لفظ الموت؛ مما يحمل دلالة التأكيد على حتمية الموت وإيمان الشاعر به.

فالشاعر حينما شبه الموت بالقلادة التي يرتديها الإنسان في عنقه، بقوله[٢]:

أينَ الفرارُ مـــن المنيـــةِ أيـــنَ لي لا أينَ، وهـــي قلائـــدُ الأعنـــاقِ
أنى توجه هـــاربٌ مـــن ريبـــها كانت لـــهُ كعقائـــدِ الأعنـــاقِ
لا الطفلُ يسلمُ من سهام قِـــسيِّها والشيخُ تزعجـــهُ علـــى إرهـــاقِ
هي موردُ الإنسانِ مصدرُ رِيِّهـــا حدثٌ يسوقُ به أشـــدَّ ســـياقِ

ولعل الفكرة التي تشير إليها الأبيات السابقة تؤكد حقيقة الموت، فالموت حقيقة ثابتة، وقضاء مقدر للصغير والكبير، لا مهرب ولا مفر منه، والعكبري كان مدركًا لهذه الحقيقة، وكان على يقين بأن الموت منهل يرده الجميع.

وموقف الشاعر من الموت لم يكن ثابتًا، فنجده أحيانًا يصور خوفه من الموت، وفي بعض النصوص نجد له موقفا آخر، يبدو من خلاله وقد ضاق بالحياة، ويشكو من صروف الزمان، وأنه يتمنى الموت، فأرى أن هناك علاقة بين الموت والفقر والظلم، فالأحنف عندما أصبح أسيرًا للفقر والحرمان، دفعه ذلك لتمني الموت، ولكن لنفرض أن الأحنف يعيش حياة مترفة، وله مكانة اجتماعية عالية، فهل سيتمنى الموت؟ اعتقد لا، فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية، هي ما دفع الشاعر للاغتراب الاجتماعي والنفسي، ونجد ذلك في

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٣٠.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٣٩٤.

قوله[١]:

صُروفُ الليالي صيَّرتني كما ترى ... أدبُّ دبيبَ السخلِ[٢] ساعةَ يولدُ
وألتمِسُ الجدرانَ بالكفِّ والعَصَا ... وأحبو كما يحبُو الوليدُ المبلدُ[٣]
أؤدّي فروضِي جالسًا بمشقةٍ ... عليَّ وبابُ البيتِ للخيرِ موصَدُ
ومنْ عاشَ مِنْ بعدِ الثمانينَ أربعًا ... تمَنَّى ورودَ الموتِ والموتُ أجودُ
فلا يغترِرْ خلقٌ بعيشِ شبيبةٍ ... فليسَ على الأيامِ خلقٌ يخلَّدُ

جسد لنا في أبياته السابقة ما آل إليه، فحتى المشي أصبح صعبًا، فشبه نفسه بالسخل الذي يصعب عليه المشي، وفي قوله: «ألتمِسُ الجدرانَ بالكفِّ والعَصَا» فيه إشارة إلى ضعف نظره.

وفي قوله:

ومنْ عاشَ مِنْ بعدِ الثمانينَ أربعا ... تمَنَّى ورودَ الموتِ والموتُ أجودُ

لعله قد عاد بنا إلى الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى حين قال:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانينَ حولاً لا أبا لك يسأمِ

فلابد للمرء أن يستغل اللحظات الجميلة في حياته، فربما أنها لن تتكرر، فللحياة قيمتها أمام الموت، وعندما يتعرض الإنسان للموت وينجو منه، ويعود للحياة ليعود للألم والمعاناة، مثل ما حدث للأحنف فها هو يصور لنا تجربته[٤]:

ولا تدعْ فرجًا إلا صرفتَ به ... وجهَ الهمومِ فبابُ الموتِ ينتظرُ
كم مرةٍ سلَّ[٥] هذا الموتُ صارِمهُ[٦] ... فاغتالني ثمَّ جاءَ الدَّهرُ يعتذِرُ
أولَى قبيحًا وأولَى بعدَهُ حسنًا ... هذا وهذا عَلى ذَا مرتِ السيرُ

(١) ديوان الأحنف، ص ٢١٠.
(٢) السخل: ولد الشاة الذكر أو الأنثى، كما ورد في الديوان.
(٣) المبلد: الضعيف المتحير، كما ورد في الديوان ص٢١٠.
(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٣٣.
(٥) سل: انتزع وأخرج، كما ورد في الديوان.
(٦) الصارم: السيف القاطع، كما ورد في الديوان.

ثم يكتب وصيته الأخيرة ليدفنوه بعيدًا عن ضجيج الأصوات، فقد ملَّ من الناس ومشكلاتهم وصراخهم، فقد اعتزل الناس في حياته، ويرغب أن يعتزلهم بعد مماته، فلم يجنِ منهم إلا الألم والوجع، فيقول(١):

احفروا ليْ قبرًا إذا متُّ في الأرْضِ بعيدًا من ضجَّةِ الأصواتِ
واكتُبوا في صحيفةٍ عند رأسي بعدَ دفني في حُفرتي ووفَاتي
يا غريبًا قد عاشَ ما عاشَ فردًا وخليًّا من زوجةٍ وبناتِ
وكذَا قد دُفنتُ في الأرضِ نفيًا مفردًا من مقابرِ الأمواتِ
فلكَ اللهُ راحمًا ووليا غافرًا للذنوبِ والسيئاتِ

ونستطيع أن تستشف الحالة النفسية المتردية التي آل إليها الشاعر نتيجة وضعه الاجتماعي المتدني، ونتيجة التهميش والإهمال اللذينِ سَيَّجَاهُ في دائرة الفقر، والعوز، والحاجة، حيث يقول(٢):

كَمْ ميتٍ حالفتهُ وبُختُ في أكفَانِه
ودفنتهُ دفنَ الكِلاب بذلّه وهوانِهِ
وأكلتُ ما ذخرت يَداه لجهله بزمانِه

وتتكرر صورة الفقدان والتأبين في كل يوم، حيث يذهب للمقبرة حاملاً فقيده على كتفه ثم يعود بدونه، وهذا الفقدان يعطي شاعرنا الإحساس بالألم والغربة؛ لشعوره بالوحدة فنراه يقول(٣):

نَزِفّ إلى المقابرِ كُلَّ يومٍ عَلى الأكتافِ نحتمِلُ السَّريرا
حميمًا أو حبيبًا أو غريبًا ونَدفِنُ في الثَّرى الشيخَ الكبيرَا
وما تُبقي المنونُ على صغيرٍ ولا تدعُ الغنَّي ولا الفَقيرَا
كأنَّهُمُ إذا سَكنُوا الحنَايا إذا فكرتَ ما سكنُوا القُصورَا

(١) ديوان الأحنف، ص ١٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٥١٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٨.

إذا عاش الفتى مائة وعشرًا وحُمَّ يقولُ: عشتُ مدًى قصيرَا
فإنْ فتشتَ عن فكرٍ دقيقٍ وجدتَ الناسَ أحياءً قُبُورَا

فالموت يهدم حياة الشاعر لبنة لبنة، فيأخذ الأصدقاء ويبعده عنهم ويغيبه عمن أحب[1]:

الموتُ يهدمُ ما بَناهُ الدَّهرُ من بَعدِ العِمارهْ
وتجولُ فيهِ يدُ البِلَى بَعْدَ البَشَاشةِ والنَّضَارَه
حتى تَرى الجسدَ النضيرَ منقلاً في كل تارَهْ
بَعْدَ الغَضَاضةِ والملاَحةِ مثل مَلقُوطِ الحِجارَه

ولعل الإيمان بالقضاء والقدر هو ما يخفف عن شاعرنا هذا الألم الكبير للفقدان، فالموت محتم للجميع.

ولكن ذلك لا يمنع الشاعر من الاستغراب عندما يرى الإنسان يطرب ويثير شوقه ذكر الموت، فالموت بنظر الشاعر ألم وفراق، وغربة عن الحبيب والصديق فنراه يقول[2]:

تعجبتُ مِنَ المرءِ وذكرُ الموتِ يشجيهِ
كما جددهُ الدهرُ كذاكَ الدهرُ يبليهِ
ومُفضِيه إلى الموتِ الُمنى والحرصُ حاديهِ
وما قدم من فعلٍ جميلٍ فهوَ لاقيهِ
ومن قدمَ شَرًّا فيه فالجبارُ يجزيهِ

وهاجس الموت قد ساهم في إشعال جذوة الاغتراب لدى الأحنف وشعوره بالحزن والأسى، فالموت يأتي ألمه مضاعفا في الغربة، وكذلك الشعور بقرب الموت خاصة بعد بلوغه من الكبر، ويرى أن مجرد التفكير في الموت، هو موت في حد ذاته فيقول[3]:

الذكرُ للموتِ موتٌ والفكرُ في الموتِ فوتُ

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٢.

والمـــــوتُ يمـــــشي الهوُينـــــا ولـــــيسَ للمـــــوتِ صـــــوتُ

وأنه كلما مضى يوم من عمر الإنسان اقترب من الموت، وفي ذلك يقول[١]:

أصبحتُ من رهفِ الأيامِ في عجلٍ ومن بكوري على الآمالِ في مهلِ
وكل يـــومٍ يـــوافيني يُعلمـــــني أني من الموت في يومي على وجلِ

وعندما تصبح الحياة في نظر الأحنف كالشيْء المستعار الذي سيرد إلى صاحبه يومًا ما، يقول[٢]:

ومـــا هـــذهِ الأيـــامُ إلا معـــارةٌ تمتـــع بهـــا فالُمـــستعارُ رديـــدُ
ولا تعتقدْ فيهـــا البقـــاءَ فإنهـــا وإنْ بقيـــتْ فالمـــستعيُر فقيـــدُ
وكلُّ جديدٍ أَخْلقتهُ يـــدُ البِلـــى فَـــرثٌّ لقـــومٍ قـــادمينَ جديـــدُ
وبيْن صروفِ النـــيَّرين عجائـــبٌ تنَاهى إليها العقـــلُ وهـــو بليـــدُ
فلا مُـــصعدٌ عنـــها ولا مُتـــسلقٌ إلى فوقِهـــا إلا مـــــداهُ بعيـــدُ
حياةٌ ومـــوتٌ وافتـــراقٌ وأُلفـــةٌ ونحسٌ وسعدٌ والـــسَّعيدُ ســـعيدُ

وأسلوب الشرط في البيت الأول يؤكد لنا حتمية الموت، التي يتناساها كثير من الناس، فحب البقاء غريزة متأصلة في الإنسان، فالشاعر يرى أن الناس في غفلة عن الموت، فهذه الدنيا فانية، وكل جديد سيبلى مع الزمن، وصروف الدهر متقلبة، وجسد الأحنف إحساسه بالاغتراب من خلال المقابلة في قوله: (حياةٌ وموتٌ، وافتراقٌ وأُلفةٌ، ونحسٌ وسعدٌ).

فمن خلال ما استعرضنا من أبيات ومقطوعات، نستشف منها موقف الأحنف من الحياة، فنرى أن الموت قد هيمن على تفكيره، وقد لمسنا في أشعاره الاستسلام والرضا، فالموت يمثل قدرًا لا مفر منه، وهو مؤمن بالقدر، ونراه أحيانًا قد تجاوز الرغبة في الحياة إلى الرغبة في الموت.

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٦.

المبحث الثالث: الشاعر وأحداث الزمان:

إن قضية الزمن أو (الدهر) قد شغلت الشعراء منذ القدم، وأخذت مساحة شاسعة في أشعارهم، فهي تتصل بحياة الإنسان، وبمولده، وحركة حياته وموته.

«فالزمن غدًا كما عبرت عنه الدراسات العربية القديمة المبكرة قياسًا للعمر ومدة البقاء؛ في الوقت الذي صار تجربة اجتماعية مادية ونفسية، تنطوي على وعي لتعاقب الأحداث؛ ميلادًا وموتًا وربطها بالزمن الطبيعي...دون أن ينسى العرب مفهوم الزمن التاريخي لحظة واحدة...وفي ضوء ذلك اهتدوا إلى دورة الزمن التي لا تشكل في بداية ولا نهاية، وأطلقوا عليها مفهوم الدهر» (١).

«بعد فساد الأحوال السياسية في العصر العباسي أدى ذلك إلى الاضطراب، وإلى سوء الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وشاعت الفتن والثورات، فلجأ كثير من الشعراء إلى شكوى الدهر في أبيات مستقلة، فاستقل هذا الفن الشعري وسمي بالدهريات، وهو شعر وجداني مرتبط بمكنون النفس وآلامها ومعاناتها، وهو شعر صادق لم ينظمه أصحابه رغبة في منصب أو تقربًا لحاكم، وقد كشف عن كثير من الدلالات النفسية والاجتماعية والسياسية، وألقى الضوء على الواقع الذي عاشته أمة الإسلام حينًا من الدهر» (٢).

فالأحنف الذي عاش في ذلك العصر المضطرب، الذي رفعت فيه رايات الظلم والفساد، وتجرع منه كؤوس الحرمان والفقر، فكان لابد أن ينعكس ذلك على أشعاره، فصور لنا صراعه مع الدهر، ولم تكن هذه الشكوى المرة إلا وليدة للظلم، ولأحداث وأقدار خارجة عن إرادة الشاعر، فيطلب من الدهر أن يتمهل، فقد ذهبت القوة والعزيمة، وبات يصارع الشيخوخة فيقول(٣):

صُلتُ(٤) على الدهرِ فلم يعبَ بِي ولا انـــثنى للتِّيـــهِ والـــصَّولِ

---

(١) ينظر: فكرة الزمن في الدراسات العربية، حسين جمعة، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتـــاب العرب، دمشق العدد ٨٦-٨٧ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، آب (أغسطس) ٢٠٠٢ السنة الثانية والعشرون.

(٢) موقف أبي العلاء المعري من الدهر، ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٩، بقلم فرهاد ديو سالار، الـــشبكة العنكبوتيـــة http:/ / www. diwanalarab. com/ spip. php?article١٨٦٦٥

(٣) ديوان الأحنف، ص ٤٤١.

(٤) صلت: سطوت وتطاولت، كما ورد في الديوان.

وقلتُ: يا دهرُ اتَّئد بعد ما شكوتُ فاسترجعَ في القولِ
لما رآني قد تخليتُ في أمري من القوةِ والحولِ

وعندما يكون الزمان كالحيوان المفترس في تصور الشاعر يقول[١]:

عضَّ الزمانُ على عودي فقومهُ عضَّ الثقافِ ألانَ الحدَّ جانبُه
صاحبتُ دهري بفكرٍ ثاقبٍ وعَنًى راقٍ إذا لَسَبَتْ قلبي عقاربُه
كم مرةٍ رعتُ خوفًا من مخالبه وكم سَطَا فنَكَتْ قلبي مخالبُه
كأنَّني منه في بحرٍ تُلاطِمُني أمواجُه وتوافيني عَجائبُه
ما تبتديني بإحسانٍ مواهبهُ إلا تلتهَا بتنغيصٍ نوائبُه
لكلِّ أحوالِه عندي مغالبةٌ صبرًا وللموتِ خطبٌ لا أُغالبُه

فتشبيه الشاعر للزمن بالحيوان استعارة زادت المعنى عمقًا وثراءً، فعضة الحيوان مؤلمة موجعة، فكذلك أحداث الزمان والغربة مع الأحنف، فقد كان يرتعد خوفًا منه، ففي قوله: (كم مرة رعت خوفًا من مخالبه)، و (وكم سطا فنكت قلبي مخالبه)، واستخدام كم الخبرية للدلالة على الكثرة والتعدد، فالمصائب والحوادث تتكرر في حياته، وأما في قوله: (كأنني منه في بحر تلاطمني أمواجه وتوافيني عجائبه)، في هذا التشبيه إيحاءٌ منه بكثرة المصائب والأحداث التي يصارعها، فكل المشاكل والأحداث تغلّب عليها بالصبر إلا الموت، فهو قدر لا مفر منه.

وعن تقلبات الدهر «قد نسب العرب إليه كل غدر وعاهة ومصيبة تلم بالإنسان، كما أنهم لا يبرحون يعاتبونه ويبثون شكواهم من أقداره...» [٢] فنراه يقول[٣]:

قد أمنتُ الدهرَ أن يقلبَ يومًا بك ما بي
إنما الدنيا حديثٌ بين عتبٍ وعتابِ
وحياةٌ ومماتٌ في بناءٍ وخرابِ

(١) ديوان الأحنف، ص ١٠٣.

(٢) الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري دراسة موضوعاتية فنية، حياة بوعافية، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، ص ٤٣.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٩٨.

ويـــــــسارٍ وافتقـــــــــارٍ واغتـــــــراب وإيـــــــابِ
كــــم رأينــــا مــــن رفيـــعٍ حُــــطّ مــــن بعـــدِ انتـــصابِ
وحقـــــــيرٍ ضـــــــربَ الـــــــدهرُ عليـــــــه بالحجــــــابِ
مــــا علــــى الأيــــامِ عتـــبٌ في مجـــــــيءٍ وذهـــــــابِ
إنمـــا العَتْـــبُ علـــى مـــن زلَّ عـــن وجـــهِ الـــصوابِ

ويظهر من خلال الأبيات أن علاقته مع الزمن علاقة تنافر، فالمفردات المتناقضة توحي بعدم التوافق، فقوله: (حياة وممات- بناء وخراب -يسار وافتقار -اغتراب وإياب-رفيع وحقير- مجيء وذهاب)، يفضي بالتوتر والغربة النفسية التي تسيطر على حياته.

وهو غير مؤمن بفكرة السعادة الأبدية، فكل يوم مختلف عن الآخر، فتارة حلوة عذبة، وتارة مرة لا تستساغ، إلا أن معظم الأيام التي يأتي بها الدهر تبعث الحزن فيقول(١):

مــا كــلُّ يــومٍ لــه نظــيرٌ فَخُذْ من الـدهرِ مـا اسـتقاما
يومــــك في فرحـــــهِ كعــــامٍ تراه عامًـا ولـيسَ عـامـا
ســــجيةُ الــــدهرِ أن تــــوافي بكــلِّ مــا يــشبهُ الظلامــا

فصورة الزمن في نظر الأحنف يومان، فيوم عسير، ويوم يسير؛ لقول علي كرم الله وجهه: ((الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك))، وهكذا هي الحياة، فلم تكن سوداء دائمًا فهي تحمل بصيصًا من الأمل(٢):

الدهرُ يومانِ يــوم لا تــسرُّ بــه وبعــدهُ لــكَ تفــريجٌ وإينــاسُ
يومٌ يسوءُ ويــومٌ فيــه مَفرَجــةٌ وبينَ هذينِ ما قدْ يذهبُ اليــاسُ

ونجد العكبري شاكيًا من هذا الزمان الذي آلمه بحوادثه بقوله(٣):

ولما رمَــاني الــدهرُ فــيمن أُحبُّــه بسهم القِلى والدهرُ من شَــأنه الغَــدرُ
بكيتُ على نفْسي وقلتُ لها: اصبرِي فما للفــتَى إلا التجــلدُ والــصــبرُ

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

وقلتُ كما قد قالَ في الـــدهرِ قائـــلٌ نأى إلفُهُ عنـــهُ فحـــــلَّ بـــه الهجـــرُ
(عجبتُ لسعيِ الدهرِ بـــيني وبينـــها فلما انقضى ما بيننَا سكَـــنَ الـــــدهرُ)

وكان العرب في جاهليتهم «يضيفون النوازل إلى الدهر، والنوازل التي تنـــزل بهم من موت أو هرم، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعله، فيذمونه ويسبونه» [(١)]، ولما جاء الإسلام نهى عن سب الدهر، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبُّوا الدهرَ فإن الله هو الدهرُ)) [(٢)]، ومع ذلك نجد أغلب الشعراء ينسبون الأحداث إلى الدهر، كما صور العكبري أن طبيعة الدهر الغدر والخديعة يقول[(٣)]:

دعِ الـــــدُّنيا فقـــــد غَـــــدَرتْ بـــــأقوامٍ بهـــــا وثِقُـــــوا
وكـــــانوا يجمعـــــون لهـــــا كـــــأنهُمُ لَهَـــــا خُلِقُـــــوا

وقد عركته رحى الأيام وأذاقته التجارب القاسية، وعانَى الفقر والحاجة، فلبس ثوب الحلم والصبر في مواجهتها، فنراه يقول[(٤)]:

عَركتْنِي الأيـــامُ عـــركَ الـــدابغِ فلبستُ عنها ثوبَ حِلـــمٍ ســـابغِ
وأرانيَ القمـــــرانِ في كرَّيهِمـــــا عِبرًا تَدقُّ على اللبيـــبِ البـــــالغِ

واستهل البيت بالفعل الماضي (عركتني) للدلالة على ماضيه الموجع، وإحساسه بالغربة والألم.

ويقول متذمرًا من حاله[(٥)]:

كَفى حزنًـــا مـــا أرى حـــلَّ بي مـــن الـــضُّرِّ في زمـــنٍ كابِـــت

ويصور حالته النفسية المتعبة حيث يقول[(٦)]:

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ص ١٤٩.
(٢) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ٤/ ١٧٦٣.
(٣) ديوان الأحنف، ص ٣٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٤٩.
(٥) المرجع السابق، ص ١٣٩.
(٦) ديوان الأحنف، ص ٢٩٨.

مراتـــبُ الـــدهرِ بأتعَاسِـــه ... تُغــصِّصُ الحــرَّ بأنفاسِــه

لم يبــقَ مــن مكروهِــهِ غُــصَّةٌ ... إلا سَــقَانِيْها ومــن باسِــهِ

فالعكبري قد وضعنا أمام لوحة فنية روعة في التصوير والخيال، فقد جعل الحر يغص بنفسه ويا لها من غصة، فهي صورة تنضح بالألم.

فالأحنف الذي يشكو من حوادث هذا الزمان التي جعلته يمل العيش، ويتمنى الموت والخلاص من هذه الدنيا التي هي كلها مصائب، وهذا ما يظهر في قوله[(١)]:

ما كنــت أول محــروبٍ تأكّلــه ... صرفُ الزمانِ فلم يــضرعْ ولم يحــلِ

فالموت أيسر عندي من مطــالبتي ... نفسي بنيل الندى من باخلٍ نكــلِ[(٢)]

إلا أن صنيع الدهر ربما يحمل بين طياته النفع في بعض الأحيان كقوله[(٣)]:

صــنيعُ الــدهرِ تفرقــةٌ وجمــعٌ ... ومــن أفعالِــه ضــرٌّ ونفــعُ

ويقول[(٤)]:

للــــدهرِ إدبــــارٌ وإقبــــالُ ... وكـــلُّ حـــالٍ معهـــا حـــالُ

فصنيع الدهر يحمل كثيرًا من المتناقضات، (تفرقة وجمع، ضر ونفع، إدبار وإقبال)، فالتناقض سمة من سمات الدهر.

وفي تقلب الدهر عجائب، وهذا ما نراه في قول الشاعر[(٥)]:

من يصحبِ الدهرَ يُبصرْ من تقلُّبِه ... أشياءَ أصغرها يأتي على العجــبِ

ويقول أيضًا[(٦)]:

وفي طيِّ هذا الدهرِ كل عجيبــةٍ ... فمن عاشَ لاقتهُ النهى والعجائبُ

فأحداث الدهر متقلبة ومتغيرة، فالمرء يمسي في حال ويصبح في حالٍ أخرى، فالدهر

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(٢) من النكل: وهو المنع والتنحية عما يريد. كما ورد في الديوان، ص ٤٤٨.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٣٢٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٣٥.

(٥) المرجع السابق، ص ١١٢.

(٦) المرجع السابق، ص ١١٤.

يحمل في طياته العجب.

وفي كثير من الأحيان يلتزم العكبري الصمت تجاه أحداث الزمان، حيث يقول[١]:

ما سُكوتي عـــن الزمـــانِ لعــيٍّ ... نقصُ حـــالي أشـــدُّ ذمِّ الزمـــانِ
أيُّ حالٍ أرقُّ من مثـــلِ حـــالي ... أيُّ خَلقٍ يكونُ في مثـــلِ شـــانِي
مفلسٌ أحنـــفٌ فقـــيرٌ غريـــبٌ ... آيـــسُ فاقـــدٌ شـــديدُ التـــواني

إذا تأملنا هذه المفردات: (مفلس، أحنف، فقير، غريب، آيس، فاقد، شديد التواني) نجد أنها معبرة، فإحساسه ينـــزف بألم الغربة، فهذا الشاعر الذي عاش تحت وطأة الفقر، وعانى الهوان والضيم، فانفجرت مشاعره بشكوى عارمة من قساوة الزمن وجوره.

كما أنه يتعجب من الذين يريدون الحياة ويطلبون العيش فيها، ويتمنون البقاء، فهو يدرك أن الدنيا زائلة وليس البقاء إلا لوجه الله تعالى، فيقول[٢]:

أرى الدنيا تَبيـــدُ ومـــنْ عليهـــا ... ويبقى وجهُ ربِّـــك ذي الجـــلالِ
فـــلا تغتـــرَّ بالدنيـــــا فـــــإني ... أرى الدنيـــا تـــصـــيرُ إلى زوالِ

ويقول[٣]:

وللدهرِ علاتٌ فخذ منـــه عَفْـــوَهُ ... وإلا فكـــلٌّ في الـــصفاءِ عليـــلُ

وفي صحبة الدهر يقول[٤]:

من كانَ للدهرِ خِدْنًا[٥] في تصرفهِ ... أهدتْ له صحبةُ الـــدهرِ التجاريـــا
إن كانَ صِفرًا من الآدابِ ســـربلهُ ... كَرُّ الليالي مـــع التجريـــبِ تأديـــا

فالليل يعكس آلام المغترب النفسية، والشعراء غالبًا يلجؤون إلى الليل لبث معاناتهم وشكواهم، ففي قوله: (سربلهُ كَرُّ الليالي) استعار صفة الإلباس من الإنسان وألصقها بالليل.

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٥٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١١١.

(٥) الخدن: الصديق، كما ورد في الديوان، ص ١١١.

وفي كثير من الأحيان يعتمد العكبري على الصبر لإيمانه بالقضاء والقدر فيقول[١]:

لا أشتكي الـــدهرَ لعلمـــي بمـــا يَخْفَى على الجاهلِ مـــن قـــدرهِ

فهو ممن فهم الدهر وفهم تقلباته[٢]:

سلوتكَ لا أنَّي على الـــبينِ صـــابرٌ ولكن لعلمي بالذي الـــدهرُ صـــانعُ

ومن ذا الذي من حادثِ الدهرِ سالمٌ ومن ذا الذي يحيَا إذا الـــدهرُ رافـــعُ

فالعكبري قد استفاد من دروس الحياة، «إن تجربة الحياة غذت مخيلة الشعراء بمزيد من الأفكار التي جعلتهم في غاية الحذر من تلاعب الأقدار، وأيقظت في نفوسهم شعور الإحساس، وضرورة الالتفات لحركة الزمن في رقيب دائم، وعلى الرغم من المتابعة إلا أن الدهر لا يأمنونه، وينعت بالغدر وقلة الرحمة» [٣].

فها هو يقدم نصيحة الصبر وعدم الانزعاج، حيث يقول فيها[٤]:

لا تنـــــزعجْ لنوائـــبِ الـــدهرِ فمتى انزعَجَت فمِـــل إلى الـــصَّبرِ

فالعكبري ممن صبر على زمنه[٥]:

صبرتُ لصرفِ هذا الـــدهرِ لمـــا شجيتُ به وأعـــوزني الوجـــودُ

ويقول أيضًا[٦]:

عجبتُ لبيتٍ قاله بعضُ من مضى (إذا عضني دهرٌ عضضتُ علـــى الـــصبرِ)

فمن عضَّهُ دهرٌ ولم يكُ واجـــدًا ســـبيلاً إلى صـــبرٍ يعـــضُّ علـــى الـــدهرِ

يعضُّ على نظْراتِه وهـــو صـــاغرٌ وإلاَّ أتاهُ المـــوتُ مـــن حيـــثُ لا يـــدري

ويقول أيضًا[٧]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٤٤.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٣٢٦.

(٣) ينظر: شكوى الدهر في الشعر الجاهلي، عارف عبد الله محمود، مجلة ديالي، العدد السابع والخمسون، ص ٦، ٢٠١٣.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٣٣.

(٥) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٧) المرجع السابق، ص ٣٩٧.

خُذْ ما استوى لك مـــن زمانِـــك واثبـــتْ لـــدهرِك في مكانِـــك

ويستغرب ممن يعيره بنوائب الدهر ومصائبه، محاولاً أن يقتلع نفسه من الألم فيقول[١]:

قُل للذي بصروفِ الدهرِ عيرنِـــي هل عاندَ الدهرُ إلا من له خطـــرُ

وكان للشيب نصيب في شعر الأحنف «وكم تحدث الشعراء الكبار ذوو النفوس العظيمة، عن الشيب، بالنحيب الذي تفضحه الكلمات فجاءت قصائدهم أحرَّ التعازي، ورموا كلمات اللعن بوجه بياض الشعر» [٢]، فها هو العكبري يتحسر على شبابه الذي ولَّى فيقول[٣]:

لاحَ المشيبُ فأبكاني على زمـــنٍ فيه الشبابُ أميرٌ غـــير معـــزولِ

فالطباق بين الشيب والشباب يوحي بالصراع النفسي لدى الشاعر، صراعٍ بين القوة والنشاط، والضعف والعجز، فالشيب دلالة من دلالات الزمن فهو يوحي بتقدم العمر، واتجاه عجلة الزمن نحو الموت: «ويتحسر الشيوخ على أيام الشباب في محاولة للتعويض عن الآلام التي يلاقونها في شيخوختهم، ويذكرون تلك الأيام والفرحةُ تملأ عيونهم، ولكن الحسرة تظل تغلفهم، إنهم أمام عجز الشيخوخة لا يجدون ملجأً لهم إلا في الأيام الخالية، أيام الشباب، ينفصلون عن واقعهم، ويغتربون عنه، بحثا عن عالم يخلق التوازن النفسي في داخلهم» [٤].

والشيب مدعاة للوقار وتوديعًا للشباب، يقول العكبري[٥]:

ذهـــبَ الـــشبابُ وطِيبُـــه وغَـــدا الـــسّـــرورُ مراوِغَـــا

ولبـــستُ مـــن شـــبَا المـــشـــيـــبِ مُـــلاً[٦] صَـــنِيعًا ســـابِغَا

ويتعجب من إنكارهم للشيب فيقول[٧]:

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٦٦.

(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، بيروت: دار الأندلس ١٤٠٦هـ، ص ١٤٤.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٤٣٧.

(٤) الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق الخشروم، ص ٢٦٦.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣٤٩.

(٦) الملاء: جمع ملاءة، وهي الإزار والملحفة، كما ورد في الديوان.

(٧) المرجع السابق، ص ٤٣١.

وقالوا: شبتَ قُلتُ: الشيبُ حَتمٌ على منْ عاش ذا عمـــرٍ طويـــلِ

وحينما يكون الشيب نذيرًا بالموت نرى الشاعر يقول في ذلك[١]:

لِيَ في الـــشَّيبِ زاجـــرٌ ونـــذيرٌ وبياضُ الفُودينِ[٢] خـــيرُ نـــذيرِ

إذن بعد هذه الرحلة التي استوقفتنا مع العكبري في غربته الزمانية يظهر لنا جليًّا كيف أنه لم يلق باللوم على أهل زمانه بقدر ما ألقى اللوم على الزمن أو الدهر.

ويبدو أن مشكلة الشاعر مع الزمن عويصة، فإخفاقه في تحقيق طموحاته جعلته يترنم بصوت حزين، ويبكي الدهر ومصائبه، ويصور كيف غدر به الزمان وتكالبت عليه الحوادث والآلام.

ولعل إحساسه بالغربة جعله يوجه سهام لومه للزمن، ويجعله في قفص الاتهام، وجعله يعاني من اغتراب زمانيّ بدا واضحًا من معجمه اللغوي، وتكثيفه للكلمات الدالة على الوقت والزمن، والدهر والشيب.

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٢.

(٢) الفود معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، والفودان: جانبا الرأس، اللسان ٣/ ٣٠٤، مادة: فود.

الفصل الثالث

الاغتراب الاجتماعي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الاغتراب عن الناس.

المبحث الثاني: الاغتراب عن قيم المجتمع.

ويرتفع مستوى الغربة الاجتماعية عند إحساس الفرد بانفصاله عن الناس، وعدم انسجامه مع المجتمع؛ ويمكن تعريف الاغتراب عن المجتمع بأنه: «شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، أو عن السلطة السياسية الحاكمة» (١).

وقد تبلور هذا الاغتراب في حياة العكبري في صورتين:

أولاً: الاغتراب عن الناس.

ثانيًا: الاغتراب عن قيم المجتمع.

المبحث الأول: الاغتراب عن الناس:

«يعد الإنسان بطبعه مخلوقًا اجتماعيًّا يميل إلى العيش وسط جماعة معينة، يشعر بينها بالأمن والاستقرار والطمأنينة، وتشبع حاجته إلى الانتماء وتبرز شخصيته من خلالها، وتتشكل إلى حد كبير، ويتشرب منها المعايير الاجتماعية والخلقية، والاتجاهات النفسية المهمة، ويتعلق بأعضائها ويقيم معهم علاقات متبادلة، وحينما لا يستطيع أن يقيم هذا التعلق فإن علاقته بأعضاء الجماعة تتأثر سلبًا، فينسحب بعيدًا عنهم، ويعيش في وحدة وعزلة» (٢).

وإذا تأملنا قصائد العكبري نجد أن شعوره بالاغتراب قد ظهر في وقت مبكر من حياته، وهو يزداد قوة ووضوحًا في قصائده، فهو نابع من تجربة حية عاشها الشاعر.

وتكون حاله أشد مأساوية واغترابية إذا لم يجد الصديق المخلص الوفي، يقول العكبري واصفًا بعض أصحابه(٣):

وإخوانُ سوءٍ لا يـــسرُّ إخـــاؤهم ... رضُوا لي بتسليمِ العدوِّ المكاشـــرِ
إذا ما التقينا أحْضُروني سؤالـــهمْ ... وإن غبتُ فالتَّسآل لي غيرُ حاضرِ

---

(١) الاغتراب في الشعر العباسي، سميرة سلامي، ص ١٥١.

(٢) العزلة الاجتماعية، د. خليل إبراهيم السعادات، الشبكة العنكبوتية، العدد (١١٩١١)، الاثنين ١، ربيـــع الآخـــر ١٤٢٦هـ.

http://www.al-jazirah.com/٢٠٠٥/٢٠٠٥٠٥٠٩/rj٣.htm

(٣) ديوان الأحنف، ص ٢٣٤.

يودُّوني ما لم يكـــنْ لي حاجــــةٌ إليهم وِدادَ الُمقبلِ المتـــضـــافـــرِ
فإن عرضتْ لي حاجةٌ عرضُوا لها بِعُـــذرِ بخـــيلٍ أو بتقطيبِ واتـــرِ

في الأبيات السابقة يتحدث الأحنف عن بعض أصحابه حيث وصفهم بقوله: (إخوان سوء)، هذا الوصف الذي يحمل في طياته الكثير من صفات هؤلاء الأصحاب، والصديق الحقيقي حاضر في الرخاء والشدة، يفرح لفرحك ويحزن لحزنك، ويسأل عنك في غيابك، والصداقة قوامها الإخلاص والوفاء بعيدًا عن المصالح، فهو يشعر بالاغتراب في مجتمعه الذي يعج بأمثال هؤلاء البشر.

وقد تأمل العكبري فيمن حوله من الناس، فرآهم غارقين بالفساد، فصب جام غضبه عليهم فئة فئة، ومن بين تلك الفئات التي ذمها العكبري ونالت النصيب الأكبر فئة الأصدقاء؛ لأنه -ربما -لم يوفق في صداقاته فيقول[1]:

لي صـــــــديق بلـــــــدي وجهــــه غـــيظ وكـــربُ
قـــد رمزنــــاه ليـــدري مـــن لـــه فكـــر وقلـــب
أبـــدل الحـــاء بكـــاف ثم كنيـــــه بحــــــرب

فالعكبري يشعر بالاغتراب ممن حوله، فهو لا يرى إلا متشمت وحاسد، ولئيم يتحدث بغيابه، وفي ذلك يقول[2]:

دُهِيْنَا مِـــنْ زَمَـــانٍ لـــيس فيـــه سِوَى متـــشامتٍ أو مـــستريبِ
وحاسدِ نعمةٍ وصـــديقِ وقـــتٍ إذا ما غبتَ ذمَّـــك في المغيـــبِ
فمـــن أولاك وُدًّا مـــن صـــديق ومن ذي قُرْبَةٍ أو مِـــنْ غريـــب
فحـــبُّ خديعـــةٍ لمكـــانِ رِفـــقٍ متى ما زال ذمَّـــك مـــن قريـــب

فنجد ألفاظه في الأبيات السابقة توحي بهيمنة الاغتراب على مشاعره (متشامت، مستريب، حاسد، صديق وقت)، فهو يعيش في مجتمع امتلأ بأصناف البشر، التي يحمل أغلبهم صفة الحسد، وصداقة المصلحة، فهذه الأصناف لا يخلو منها أي مجتمع، سواء أكان

(١) ديوان الأحنف، ص ١٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٤١.

في الماضي أم في وقتنا الحاضر.

فالصديق من تأنسُ بوجوده وصحبته، ولكن الأمر يختلف مع العكبري فيقول[١]:

صار الصديقُ مكاشرًا ... فوق العداوة من يكاشرْ
كان المجاور مُؤنسًا ... أصبحتُ يوحِشُني المجاورْ
وأرى التناكرَ في عيونِ الناسِ كاشفهم وساترْ

ويحذر من بعض الأصدقاء الذين قد تتحول صداقتهم إلى عداوة فيقول[٢]:

إذا ما الصديقُ جنى واعتذَرْ ... وعاودَ في فِعلِه واستمَرّْ
فذاكَ عدوُّك لا تَلقَهُ ... ولا تأنسنَّ به والحذر
ولو كانَ مستبصرًا منصفًا ... وقد رابَه منك ريبٌ عَذر
ولكنْ حداهُ على ما أتاهُ ... فسادُ الطِّباع ولؤمُ الظَّفَرْ

فهو يتحدث في الأبيات السابقة عن فساد أطباع بعض أصحابه، فيرى أنه إذا أخطأ الصديق في حقك واعتذر منك، ثم كرر فعلته مرة أخرى، فهو عدوك فاحذر منه.

ويرى العكبري أن الغريب ليس من ابتعد عن وطنه وأرضه، فيقول[٣]:

لقد دفعتُ إلى قومٍ إذا انتسبُوا ... فلا ربيعةُ تُؤْوِيْهُمْ ولا مُضرُ
ما يطمعُ الضيفُ في أزوادهم بُخلاً ... على الخصاصةِ[٤] لا موسى ولا الخضرُ
عند الشرورِ مرابيحٌ فإن حضَروا ... سوقَ المكارمِ في أوطانها خسِروا
فمن رأى ما رأتْ عيناي من نفرٍ ... كانوا هُمُ الرأس فيه السمعُ والبصرُ
ذاك الغريبُ يقينًا ليس من نزحتْ ... دارٌ به وسعى في همِّه القدرُ

ويتحسر على من فارقهم مَن أهل الأخلاق والسماحة، فيقول[٥]:

(١) ديوان الأحنف، ص ٢١٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٦١.
(٤) الخصاصة: الفقر والحاجة. كما ورد في الديوان، ص ٢٦١.
(٥) المرجع السابق، ص ٢٦٣.

مضى أهل السَّماح وكنتُ فيهم ... مكانَ الكحلِ في عينِ البصيرِ
أبادهمُ الزمانُ على اتفاقٍ ... فما يلوي[١] الكبيرُ على الصغيرِ
وخلَّفني الشقاء على أناسٍ ... تواصوا بالتقاطعِ والشرورِ

فهذا الجيل لا يعني له شيئًا فهو يرى أنه لا مكانة له بينهم، على عكس من فارقهم من الجيل السابق، فقد كانت له مكانته ويتضح ذلك من قوله: (مكانَ الكحلِ في عينِ البصيرِ)، فهو يقارن بين حاله في السابق ووضعه الحالي، فقد غدا غريبًا بائسًا بين أصحابه.

ويظل غدر الصديق موجعًا، للقلب، ومهينًا للنفس فيقول[٢]:

إذا قلتُ قد أصفانِيَ الدهرُ صاحبًا ... رضيَّا سليمَ الودِّ غيّرهُ الدهرُ
فحتى متى أقلي خليلاً وأصطفي ... خليلاً فيبدو في خلائقه الغدرُ
ولما رأيتُ الناسَ قل وفاؤهُم ... ومالَ بهم غدرٌ ومارجهُم مكرُ
لبستُ لهم ثوبَ القِلى حذَرَ الأذى ... يُغاوِلُني ليلٌ ويؤْنِسُني فجرُ

فقد هيج الغدر أحزانه وجعله يكابد الغربة، ويتضح ذلك من قوله: (الغدر، قل وفاؤهُم، مكرُ، يُغاوِلُني ليلٌ).

ونراه يدعو إلى اعتزال الناس، ولا يكتفي بذلك، بل يحذر من مصاحبتهم، ويدعو إلى مصاحبة الحيوانات، فيقول[٣]:

أقللْ من الخلطةِ للناسِ ... وعارض الأطماعَ بالياسِ
واقنعْ إذا لم يكُ حظٌّ بما ... بل اللُّهى من أسفلِ الكاسِ
واحذرْ بني آدم وائنس إلى ... من شئتَ من وحشٍ ونسناسِ[٤]

وينتهي بحثه عن الصديق الوفي بالفشل فيقول[٥]:

---

(١) يلوي: يعطف ويرق ويلتفت، كما ورد في الديوان، ص ٢٦٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٢ .

(٤) نسناس: خلق على صورة بني آدم، أشبهوهم في شيْء، وخالفوهم في شيء، وليسوا من بني آدم، كما ورد في الديوان، ص ٢٩٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

طلبت جليسًا أو صديقًا فلم أجد جديدًا و لم ينفق علـيَّ لبـيس[١]

حتى وصل به الحال أن يتخلى عن نديمه مخافة كشف الأسرار، فالناس لئام ولا أمان لهم، وفي ذلك يقول[٢]:

خَلَوْتُ بِشُربِ الرَّاحِ وَحْدِي لأَنَّنِـي بَلَوْتُ الوَرَى من صَاحِبٍ ونَـدِيْمِ
فَلَمْ أُلْفِ من يُصْفِي الوِدَاد ولَمْ أجِدْ أَخَـا ثِقَـةٍ في شِـدَّةٍ ونَعِـيْمِ
خَلَوْتُ بِهَا وَحْدِي مَخَافَةَ صَـاحِبٍ لأَسْرَارها في النَّاسِ غَيْـرِ كَتُـوْمِ
تَعَزَّيْ عنِ الإِخْوَانِ يا نَفْسُ واصْبِري فصَبْرُكِ خيرٌ من حُـضُوْرِ لَئِـيمِ

وينتقد تصرفات بعض أصدقائه، وتقليدهم لليهود، وفي ذلك يقول[٣]:

لي صَـدِيْقٌ صُـدْقَانُهُ نَفَـرُ الـسَّبْتِ وأهـلِ الكُفُـورِ والتَّعْلِيْـقِ
هُوَ فِيْهِم وَلَـيْسَ مَـنْهُمْ وَلَكِـنْ رُبَّ رَأْيٍ أَعْدَى امْـرأً مِـن صَـدِيقِ
شَـغَلَتْهُ الأَعْيَـادُ عَنَّـا وعَـنْ دَرْسِ عُلُـوْمِ الإِسـلامِ بالإِبْـسيقِ[٤]
مُلْهَـمٌ بـاليَهُوْدِ والـسَّبْتِ عَـنْ ذِكْـرِ لَيَـالي التَّغْرِيْـبِ والتَّـشْرِيقِ

وتتجسد الغربة من خلال تجربة الشاعر الواقعية، فتَخلي أصحابه عنه عندما أصبح مفلسًا لا مال لديه جعله يفضل مصاحبة الهر على الناس؛ لأنه يرى أن الناس لا يستحقون صداقته، فأعلن انفصاله عنهم، وإقامة علاقة مع الحيوانات، فيقول[٥]:

كم صاحبٍ صـاحبتهُ في التُّقـى أسـكنته مـسكنَ أنفاسـي
غيـرهُ مـن بعـدِ ودِّي لـهُ ووِدِّه شِـدةُ إفلاسِـي
لما رأيـتُ النـاسَ قـد وُكِّلُـوا بـالمكرِ والحيلـةِ والبـاسِ
جعلتُ هِـرَّ البيـتِ لي مؤنـسًا وصـاحبًا مـن دون جُلاسـي

(١) لبيس: ثوب كثر لبسه، كما ورد في الديوان، ص ٢٩٧.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٤٦٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٣.
(٤) الإبسيق: من مصطلحات اليهود، ومعناه عندهم الآية، كما ورد في الديوان، ص ٣٧٣.
(٥) المرجع السابق، ص ٣٠٠.

سَـــلمتُ مـــن أخلاقِـــه دائمًـــا وكـــمْ تأذيـــتُ مـــن النـــاسِ

ويتضخم حجم المعاناة والاغتراب إذا كان الغدر من أقرب الناس إليه، فهو فقد الصلة الحميمة بينه وبين بعض أفراد مجتمعه، فنجد ألفاظه معبرة عن مدى إحساسه بألم الاغتراب كقوله: (إفلاسي، المكر، الحيلة، الباس).

ورؤية الأحنف تختلف عن رؤية المجتمع الذي يعيش فيه، فهو لم يرض الذوبان داخل مجتمعه، بل قدم لنا صورة عن الواقع الذي يعايشه، وكيف علت قيمة المال على قيمة الإنسان، وكيف أنه فقد الأصحاب بمجرد الإفلاس.

ويفضل الشاعر أن يعيش وحيدًا؛ لأنه تألم من طعنات الصديق، وذاق مرارة الخيانة، فالوحدة التي عاشها الشاعر ساهمت في اغترابه؛ مما انعكس على شعره، فيقول[١]:

لا أُحِـــبُّ الأكـــلَ والـــشُّـــرب مـــــع النـــاسِ جمـــــيعا
ولـــــوَ اني مُـــــتُّ هـــــزلاً ولـــــوَ اني مُـــــتُّ جوعـــــا
خلطـــــة النـــــاس علـــــى العـــــسرة تعديـــــك الخـــــضوعا

وما زال يكابد الوحدة والعزلة حتى ألفهما وتعوّد عليهما، على الرغم من اشتياقه وذكره لبعض أخلائه، وفي ذلك يقول[٢]:

هَوَيْتُ انْفـــرَادِي والأخِـــلاَّءَ بُرْهـــةً وَكَمْ غَائبٍ عَنْ نَاظِرِي وَهْوَ حَاضِرُ
أُبَايِعُ أَصْـــحَابِي وأَهْجُـــرُ جَمْعَهُـــمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَجْمَعِ القَوْمِ طـــاهِرُ

إلا أن أولئك الأشخاص الذين لا يغيبون عن بال العكبري رغم بعدهم وغيابهم يسببون له الأذى والإحباط عند حضورهم، فيقربون كل الناس إلا هو، فلا يجد حلاً سوى العزلة والابتعاد عنهم وعن أمثالهم، وفي ذلك يقول[٣]:

وَغَائِب كُنْتُ مَهْمُومًـــا بِغَيْبَتِـــهِ شَوْقًا إِلَيْـــهِ وَمُـــشْتَاقًا إلى خَبَـــرِهْ
حَتَّى إِذَا جَاءَ أَدْنَى النَّاسَ كلَّهُـــمُ غَيْرِي وَأَنِّي مَا أَصْبَحْتُ من وَطَرِهْ
أَعْفَيْتَهُ مِن وِصَالِي وَهْـــوَ يَكْرَهُـــهُ صَبْرًا وفي الصَّبْر ضُرٌّ عند مُصْطَبَرِهْ

(١) ديوان الأحنف، ص ٣١٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

ولا ينفك بعض الأصدقاء عن لومه بسبب انفراده واعتزاله الناس، وحتى الزوجة والأولاد، وفي ذلك يقول[١]:

لِيْ صَدِيْقٌ يَلُــوْمُنِي في انْفــرادِي وانْقِبَاضِي عَنْ زَوْجَــةٍ وعَــشِيْرِ

ويصل به السخط لأعلى درجاته من أصدقائه وخلانه، فيقسم بالكتب السماوية الثلاثة القرآن والتوراة والإنجيل، ثم يتبعهم بالقسم بالصلاة والصوم والعفة بأنه لم يصبح يوما وهو راضٍ عن الرفقة، والأصحاب والأخلاء، وفي ذلك يقول[٢]:

لا وحــــقِّ التَّنْزِيْــــلِ والتَّأْوِيْــــلِ وَحــــقِّ[٣] التَّــــوْراةِ والإنْجِيْــــلِ
ووحــــقِّ[٤] الــــصَّلاةِ والــــصَّوْمِ والعِفَّــــةِ عَــــنْ صَــــائِنٍ وعــــن مَبْــــذُولِ
ما تَصَبَّحْتُ راضيًا عــــن صَــــدِيْقٍ وَرَفِيْــــقٍ وصَــــاحِبٍ وخَلِيْــــلِ

والصداقة علاقة تفرضها الحياة الاجتماعية، وحاجة الإنسان إلى أنيس يفضي إليه، ويعاونه على مواجهة الحياة، ولكن العكبري لم يجد في أصدقائه إلا الخذلان، ويصور ذلك بقوله[٥]:

ولي في عكــــبرا إخــــوانُ صــــدقٍ توافــــوا لي بــــأخلاقِ الظــــرافِ
كــــلامٌ طيــــبٌ وســــلامُ سِــــلْمٍ رضُوا لي في الهديــــةِ بالكفــــافِ
ضياعُهم الكــــرومُ وهــــم كــــرامٌ على التأكيدِ في لفــــظِ الخــــلافِ
فأيــــامُ الكــــساحِ يقــــاربونِي ويمتنعــــون أيــــامَ القطــــافِ

فنجد أن رؤية الأحنف للصديق تنبع من تجربة قاسية، وإحساس أليم بالخذلان، فشعره حافل بمرارة التجربة، ويعرض الأحنف لبعض الصفات الذميمة التي كانت وراء عزلته للناس، ولعل من أهمها لؤم الناس، فها هو يقف على مدينة (مفتح) [٦]، فيفرد لها قصيدة

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٦.

(٣) هذا ما ورد في الديوان، ولعل الصواب الذي يستقيم معه الوزن (لا وحق).

(٤) هذا ما ورد في الديوان أيضا، ولعل الصواب الذي يستقيم معه الوزن (لا وحق).

(٥) المرجع السابق، ص ٣٦٧.

(٦) مفتح: قرية بين البصرة وواسط، كما ورد في الديوان.

كاملة، بدأها بالغزل، ثم وصف رحلته والصحراء والمخاوف التي واجهته في رحلته، ثم تناول في أربعة أبيات (مفتحا)، فهي مدينة عجت باللؤماء، وليس ذلك بغريب عليها؛ فلم تسمَّ بهذا الاسم إلا لأن الرذائل فيها قد شاعت، والمكارم فيها ضاعت، يقول[١]:

رثُّ الصديقِ رقيقُ الحال في بلـــدٍ أهلوهُ قومٌ لهمْ في اللـــؤمِ تجويـــدُ
ما سُميتْ مفتحًا إلا وقد فُتحـــتْ فيها المخازي وزالَ المجدُ والجـــودُ

و لم يكتف العكبري باعتزال الناس والوحدة، والبعد عنهم، بل وجه النصح للناس، بعدم الاختلاط بالناس، فهو مفتاح الشرور، وفي ذلك يقول[٢]:

في الـــزَّمَنِ الفَاســـدِ لا تَخْـــتَلِطْ فِيْـــهِ بِخَلْـــقٍ ودَعِ الفَخْـــرَا
وَخـــالِطِ النَّـــاسَ بِبُـــؤْسٍ وإنْ كُنْـــتَ غَنِيًّـــا فَـــأَظْهِرِ الفَقْـــرَا
أَمَـــا تَـــرَى النَّخْلَـــةَ تُرمْـــى إذا مَا أَبْـــصَرُوا في قَلْبِـــهَا البُـــسْرَا
والنَّخْلَـــةُ الَحائِـــلُ مَهْجُـــوْرَةٌ لا يَرْفَـــعُ النَّـــاسُ بِهَـــا قَـــدْرا
تَسْلَمُ مِـــنْ رَامٍ وَمِـــنْ صَـــاعِدٍ يُفْسِدُ فِيْها الخُوْص[٣] والكَفْـــرا[٤]

ويعلل ذلك بقلة الوفاء، وكثرة الغدر والخيانة، وفي ذلك يقول[٥]:

قَـــلَّ الوَفَـــاءُ فَـــلاَ تَنِـــي عَنْ جَمْعِ نَفْـــسِك في وِفَـــازِ[٦]
مَـــنْ ذا دَعَـــاكَ إلى الوِصَـــالِ فقـــد دَعَـــاك إلىَ البَـــرَازِ
كَيْـــفَ الفِـــرارُ لِـــصَعْوَةٍ[٧] تَـــأْوِيْ إلى صَـــقْرٍ وَبَـــازِي

فجميع الناس في نظره قد تساوت بالصفات السيئة فيقول[٨]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٣) الخوص: ورق النخل، الواحدة خوصة،كما ورد في الديوان، ص ٢٥٦.

(٤) الكفر: وعاء طلع النخل، كما ورد في الديوان، ص ٢٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٦) وفاز: الوفز: العجلة، والوفز: ألاً يطمئن المرء في قعوده، والمقصود في عجلة ، كما ورد في الديوان، ص ٢٩٠.

(٧) الصعوة: طائر أصغر من العصفور، كما ورد في الديوان، ص ٢٩٠.

(٨) المرجع السابق، ص ٤٢٣.

اسْتَوَى النَّـــاسُ في القَبــِيح فَمَـــنْ أَحْــسَنَ فَهْــوَ المُعَــضَّهُ[١] المعْــذُول

وفي ابتعاد الناس عن مكارم الأخلاق يقول[٢]:

تَـــــرَكَ الأنـــــامُ المُوْجبَــــاتِ مـــــن المَكَـــــارِمِ والنَّوافِـــــلْ
وتَغَـــــــافلوا فاســـــــتعْمَلوا فِعْـــلَ القَبِــيْحِ مَـــعَ التَّغَافُـــلْ
وتَنـــــاذَلُوا فاســـــتَعْمَلُوا الـــــرَّد القبـــــيحَ لِكُـــــلِّ ســـــائلْ

ولعل أكثر صفة كانت تؤذي الشاعر هي صفة الحسد من الناس، وخاصة من الأصدقاء والجيران، يقول العكبري[٣]:

مثل السِّباع غَدوا علــى جلــدٍ سُـــودًا وألقـــاهُم بـــلا جلـــدِ
يلقاكَ سبعًا غـــارَ عـــن عُـــرضٍ والجـــارُ تلقـــاهُ علـــى الرصـــدِ
شُـــزرُ العُيـــونِ إذا دعـــوتهم عند الصَّريخ حُسدتَ في العـــددِ
يَتطلبـــونَ معايـــبـــي حَـــسدًا فَهمُ علـــيَّ أشـــدُّ مـــن أســـدِ

وبذلك يقول أيضًا[٤]:

إن الحـــسودَ بـــلاؤه حـــسَدُه حَسْبُ الحسودِ معاقبًـــا نكـــدُه
ذنـــبُ المحَّــسدِ عنـــد حاســـدِه نِعـــمُ الإلـــهِ وحَتفـــهُ جلـــدُه
وأشدُّ ما أغـــرى الحـــسودَ يـــدٌ سَلَفتْ إليـــهِ ولم تُعـــذكَ يـــدُه
يوليكَ ما حـــسدَ الحـــسودُ لـــهُ يكفيك منْـــه وحـــسْبُهُ كَمَـــدُه

ويقول[٥]:

إنَّ الحـــــــسودَ ليبـــــــدي مـــــن فعلِـــه مـــا يعُـــــرُّه
يفوتـــــهُ منـــــكَ شـــــرٌّ ولا يفُوتـــــــك شَـــــرُّه
كـــــم مـــــبغضٍ لي ومـــــالي إليـــــهِ ذنـــــبٌ يَـــــضُرُّه

(١) المعظه: المنسوب إلى الكذب والبهتان، كما ورد في الديوان، ص ٤٢٣.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٤١٧.
(٣) المرجع السابق، ص ١٦٦.
(٤) المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٥) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

إلا السلامةَ ممَّا يضُرني ويسُرُّه

وقد عانى الشاعر من الثقلاء وأكثر من ذمهم، فيقول(١):

أنا مِنْ طلعةِ الثقيلِ لما بي ما حديثُ الثقيلِ إلا عذابي
حركاتُ الثقيل غيظٌ فإن قالَ فقولُ الثقيلِ وخزُ الحِرابِ
كلما رُمْتُ مهربًا من ثقيلٍ كان مني كلبستي من إهابي
ما حديثُ الثقيلِ إلا عذابٌ ومُزاحُ الثقيلِ فَقْدُ الشبابِ

ورغم مرارة التجربة التي مر بها الشاعر فذلك لم يثنه عن الصداقة في حياته، فقد اصطفى الخلان، وأنس بهم ولكنهم قليل(٢):

بعد يأسي من صاحبٍ غدارِ سَلِمتْ لي مودةُ البَزَّار
مُسعدٌ مُؤنسٌ ظريفٌ ودودٌ رجلٌ من بقيةِ الأخيارِ
فَثَنائي عليهِ ما عشتُ دهري ودُعائي يتلوهُ بالأسحارِ

واختار السنُّور صديقا له ومؤنسًا، بعد أن رأى الجحود والنكران، وأبصر قلة الإنصاف والجور، يقول(٣):

أَكْرَمْتُ سِنَّوري(٤) وأَحْبَبْتُهُ مَخافَةَ الفَأْرِ المَقَاذيْرِ
فَعَابَنِي قَوْمٌ عَلَىَ حُبِّه كحُبِّ ربَّاتِ المَقَاصِيْرِ

ثم يبرر لمن لامه في هذا الحب:

فَقُلْتُ للعَائبِ في حُبِّهِ قَوْلَ عَلِيْمٍ بالمَعَاذِيْرِ
قِلَّةُ إِنْصَافِ بَنِي آدَمٍ علِّمَني حُبَّ السَّنَانِيرِ

نرى أنه أعلن انفصاله عن الناس، وأقام علاقة مع الحيوانات التي يرى أنها تعوضه عن

---

(١) ديوان الأحنف، ص ١١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٤) السِّنَّوْرُ: حيوانٌ أَليفٌ، من الفصيلة السِّنَّوْرِيَّةِ ورتبة اللَّوَاحم، من خير مآكلِه الفأر؛ ومنه أهْلِيٌّ وبَرِّيٌّ، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، الناشر: دار الدعوة، ١/ ٤٥٤.

ظلم الناس له.

كما أن الشيوخ لم يسلموا من نقد الأحنف، فحرض الناس عليهم خاصة إن كان الشيخ جاهلاً بالأمور وفي ذلك يقول[(١)]:

لاْ تَسْمَعَنَّ كلامَ شَـيْخٍ جَاهِـلٍ   يَصِفُ النِّساء بعِفَّـةٍ وجَمَـالِ
يُعْرِضْنَ عَنْـهُ زَهَـادةً ومَلالـةً   فَيَظُـنُّهُنَّ عَفَـائِفَ الأذْيَـالِ

كما أنه يضطر أحيانا لأقسى أنواع الهجاء؛ لكثرة الصفات السيئة التي يتصف بها الموصوف، ورغم ذلك يضطر لمرافقة مثل أولئك لظروف قاهرة، فيقول[(٢)]:

ألامُ علـى رفقـي بمـنْ لا أحِبُّـه   ولطفي بأعدائي وإن حَمي القلبُ
وما ضرني سِـلمِي ورفقـي بمعـشرِ   لساني لهمْ سِلمٌ وقلبي لهم حـربُ
إذا أضرموا للحـربِ نـارًا طَفأتُهـا   بألفاظِ خَدَّاعٍ يلينُ لـه الـصعبُ

فقد نقل لنا الأحنف صورة من الواقع الاجتماعي في عصره، الذي شاع فيه الفساد الأخلاقي والاجتماعي عند بعض أفراده؛ مما جعله يشعر بالاغتراب وهو بين أهله، فالفقر كان سببًا في تهميشه وإقصائه، وجعله يبدو غريبًا ذليلاً، حتى أصحابه أقرب الناس إليه تخلّوا عنه عندما احتاج إليهم، «فمن المشكلات التي ترتبط بالاغتراب وتمثل سببًا جوهريًّا له الفقر، حيث يشعر الإنسان بذل الحاجة، فإذا كان فقيرًا في مجتمع غني فإنه يشعر بالظلم الواقع عليه» [(٣)].

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٢٨.

(٢) ديوان الأحنف، ص ١١٧.

(٣) المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي الالتزام، والاغتراب، والتمرد، الدكتور حسني عبد الجليل يوسف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨، الإسكندرية، ص ١٢٢.

المبحث الثاني: الاغتراب عن قيم المجتمع:

انهارت معظم القيم الأخلاقية في المجتمع العباسي، فقد تخلى بعض أفراده عن المبادئ الإنسانية السامية، فشاع الفساد الأخلاقي، وطغت المادة على بعض فئات المجتمع، فكان همهم البحث عن ملذات الدنيا، بل والتنافس في مجالس اللهو والشراب «فعنوا بها عناية كبيرة تتناسب مع ما كان في بيئاتهم من نعيم وبذخ وإسراف؛ لهذا كانوا يزينون أرضها بالأزهار والورود، ويعنون بآلاتها وروائحها وخمرها وفواكهها...» [(١)].

فعامة الشعب يعانون الفقر والحاجة، ويبحثون عن لقمة يسدون فيها جوعهم، وأما الحكام والأغنياء فقد تجاوزوا الحد في الإسراف في المأكل والملبس ومجالس اللهو، ولم يهتموا بالفقراء من شعبهم، فغاب التكافل الاجتماعي الذي دعا إليه ديننا الإسلامي، مما ولّد التفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع، وبالتالي شعورهم بالاغتراب في وسط مجتمعاتهم، ويشكو الأحنف معاناته مع الفقر فيقول[(٢)]:

لِلهِ مـا أنـا فِيـه فقـرٌ لازمٌ وصبابةٌ تـوهي الـصَّفا الـصَّلدَا
ومعيشةٌ بالحُرف[(٣)] قـد قُرِنـت أدعُو إليهـا معـشرًا نُكـدا
إذا دعـوتُهُم مَـشَوا هُـزُؤًا مشيَ النعـامِ أُخِيـفَ فاجْتَلـدَا

فالعكبري يئن من شدة الفقر الذي ألم به، فهو يتجرع مرارته، وأن حياته قد اقترنت به، ونشعر بمرارة الفقر الذي تذوقه الأحنف في قوله[(٤)]:

قد ذُقتُ طعـمَ المِّـر والـصبرِ وقـد لبـستُ الفقـرَ بالأسـرِ
خضتُ بحـارَ الخـوفِ في ليلـةٍ مظلمـةٍ في مـسلكٍ وعـرِ

فكلماته ممزوجة باللوعة والحرمان، والشعور بالاغتراب، كقوله: (طعم المر، الفقر، بحار الخوف، ليلة مظلمة، مسلك وعر).

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة الإسلامية، آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهـادي أبـو ريده. دار الكتاب العربي، ط٥، ٢/ ٢٠٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢١٣.

(٣) الحُرف: الحرمان. لسان العرب مادة حرف، ص ٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٣٥.

لقد فقد الإحساس بالانتماء لهذا المجتمع، فكيف يشعر بالانتماء إليه وهو من طوّقه بالفقر والحرمان، وأبخسه حقوقه.

وكما يقول حسين عطوان: «ومع أنهم كانوا يتجرعون في حياتهم غصصًا مريرة، وكان غيرهم يستمتع بملذات الحياة، فإنهم لم يكونوا ناقمين على الناس، ولا حاقدين ولا حاسدين لهم، وإنما كانوا ينتقدون المفاسد التي سببت هذا التناقض الذي يعيشون فيه ويكابدون آثاره، والذي قلب القواعد الصحيحة التي يعطى بها كلٌّ حقه، ويوفر عليه حظه، كما كانوا ينادون بقسمة الحظوظ بين الناس بالعدل والإنصاف» [١].

إن تبدل الأعراف، واختلال الموازين، وفساد القيم في أي مجتمع من المجتمعات، ما هو إلا نتاج لمناخ موبوء، أثر على تكوين بعض أفراده، ويصور الأحنف ما حلّ بعصره فيقول[٢]:

زهِـــــــدَ النـــــــاسُ في العُلـــــــومِ وفي الـــــــشعرِ والأدبْ
وأتانـــــــا زمانُنـــــــا بعجيـــــبٍ مـــــن العجـــــبْ
كـــــلُّ مـــــن كـــــان قائمًـــــا مـــــستويًا قـــــد انتـــــصبْ
صـــــارَ أعـــــلاهُ أســـــفلاً فهـــــو نكـــــسٌ قـــــد انقلـــــبْ

إننا نشعر بمدى الألم الذي يعتصر قلبه إزاء ما حل بالآداب في عصره، فهو يراها تحتضر أمامه ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، فيقول[٣]:

بقدرِ ما كانـــتِ الآدابِ نافـــقةً وتُـــشتهى صـــارتِ الآدابُ تحتـــضرُ
والحلمُ والعلمُ والأخبـــارُ ضـــائعةٌ والخـــيرُ محتقـــرٌ والـــشرُّ مـــشتهرُ

فالآداب بعدما كانت رائجة بين الناس أصبحت تحتضر، وطغى الشر على الخير.

والأحنف اتخذ من العلم وسيلة للكسب، ومع ذلك ظل فقيرًا فهو لم يجد من الناس الاهتمام والتقدير، بل قابلوه بالتهميش والإقصاء، مما أشعل جمرة الاغتراب في نفسه

(١) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، حسين عطوان، ص ٩٣.
(٢) ديوان الأحنف، ص ١١٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٦١.

فيقول[١]:

عجبتُ من قلبيَ ما أصبره ومن شَقا بَخْتيَ ما أَقْذَرهْ
رزقي ضعيفٌ وبه قلةٌ كأنه قد شدَّ في مَقْطرهْ
حسبي من الحرفةِ أنِّي امْرُؤٌ معيشتي من باطنِ المحبرَهْ
ومنزلي مستهدِمٌ مقفرٌ منفردٌ في وسَطِ المقبرهْ

ويتعجب من الذين يطالبون غيرهم بالود والوفاء وهم بعيدون عن ذلك فيقول[٢]:

وفي خُلُقِ الدُّنيا وَسَاكِنِ أرْضِها تَغَيْرُ حَالٍ وانْقِطَاعُ سُرُورِ
وَمِنْ عَجَب الدُّنيا طِلاُبك مُنْصِفًا وَأَنْتَ ظَلُوْمٌ باخِلٌ بِيَسِيرِ
تُطَالِب أَهْلَ الأَرْض بالودِّ والوَفَا وَأَنْتَ حَقِيرٌ في ثِيَاب حَقِيرِ

ويتحسر على غياب القيم والمبادئ، ومناصرة الجهال، فقد غاب الوازع الديني الذي يردع الناس عن ممارسة الرذائل، «والعصر العباسي عصر متغيرات، وملتقى حضارات، وموطن أجناس متباينة، طغت فيه سلطة المال، وهدرت فيه أبواق الملذات، وعلا فيه صوت الشهوة، فرخصت القيم، وانقلب كثير من المفاهيم رأسًا على عقب...» [٣]، يقول العكبري[٤]:

قد سقطَ العارُ فلا عارُ ولَيسَ للأحرار أنصارُ
واستُضعفَ الحقُّ وقل الحيَا وصارَ للجُهالِ أنصارُ
واستوتِ الجنةُ فيما أرى عندَ ذوي التخليطِ والنارُ
واختلط الناس وقل الوفا واصطلح السنور والفارُ

ويتحسر على غياب الوفاء لدى بعض أفراد المجتمع، فيقول[٥]:

ذهبَ الوفاءُ ذهابَ أمسِ الذاهبِ والناسُ بين مخادعٍ وموارب

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢١.
(٣) الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الثالث، صغير العتري، ص ١٤٣.
(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٥٠.
(٥) المرجع السابق، ص ١٢٩.

يُبدونَ بينهُمُ المـودةَ والـصَّفـا وقلوبُهُمُ محـشُـوةٌ بعقَـاربِ

فكلماته قد اصطبغت بالاغتراب، كقوله: (ذهب الوفاء، مخادعٍ وموارب، محشُـوةٌ بعقَـاربِ)، فالألفاظ توحي بمعاناة العكبري واغترابه في مجتمع يعج بأراذل الناس التي استهانت بالأخلاق، والمبادئ والقيم.

ويقول أيضًا[1]:

سمعنـا بالوفَـاء ومـا رأينَـا وفيًّـا واحـدًا أبـدًا بعهـدِ
هجرتُ الناسَ بل هُمْ صـارمُوني لأني لـستُ ذا جِـدةٍ[2] ونقـدِ
وقد ذُكِرَ الوفـاءُ فقـال قـومٌ مقـالا واسـعا قبلـي وبعـدي

فالشاعر كان يسمع بالوفاء ولكنه لم يره في عهده، وأن الناس همشوه؛ لأنه كان فقيرا. فهنا إشارة إلى إحساسه بالقلق والضياع تجاه من حوله من الناس.

والأحنف فضّل اعتزال الناس على مخالطتهم، «وهكذا أصبحت العزلة والغربة فلسفة، يؤمن بها الأحنف ويدعو إليها، بعدما يئس من إصلاح الأمور، واستقامة أخلاق الناس من حوله» [3].

وفي ذلك يقول[4]:

إِذَا فَكَّـرْتُ فِي زَمَـنٍ عَبُـوسِ وَفِي جِيْلِي مـن البَـشَرِ الخَـسيسِ
لَزِمْتُ الَبَيْـتَ مُـضْطَرًّا كَـأَنِّي ذُوْ وِتْرٍ دُفِنْـتُ بـلا جَلِـيْسِ[5]

والأحنف يتمنى أن يعيش في مجتمع فاضل، يتحلى الناس فيه بالقيم الفاضلة، فها هو يدعو الناس إلى ذلك فيقول[6]:

ثَلاَثَـةٌ مَـنْ كُـنَّ فِيْـهِ نَجَـا واعْتَاضَ بـالفَوْزِ مِـنَ البَـاسِ

(١) ديوان الأحنف، ص ١٦٣.

(٢) الجِدَة: اليسار والسعه. اللسان ٣/ ٤٤٥، مادة: وجد.

(٣) الأحنف العكبري، شاعر المكدين والمتسولين، أحمد الحسين، http:/ / www. dahsha. com

(٤) ديوان الأحنف، ص ٣٠٠.

(٥) رأى المحقق سلطان السلطان أن البيت يستقيم لو قلنا:

لَزِمْـتُ الَبَيْـتَ مُـضْطَرًّا كَـأَنِّي بـلا وتْـرٍ دُفِنْـتُ ولا جَلِـيْسِ

(٦) المرجع السابق، ص ٣٠١.

حِلْمٌ وبَعْـدَ الحِلْـمِ شَـيْئَانِ إِنْ فَاتَـاهُ نَالَتْـهُ يَـدُ اليَـاسِ
حِرْفَـةُ المَـرْءِ بِمِقْـدَارِه وَخَيْرُهـا البُعْـدُ مِـنِ النَّـاسِ

وغياب الشهامة والمروءة يبعث في النفس الشعور بالهزيمة والاستسلام للواقع[١]:

وَفَتًـى يَرْجُـوْكَ للـشُّكْرِ خَـدوْعًا أَوْ مُطْيعَـا
فَتَرَكْتُ الكُـلَّ واعتـضْتُ مِـنَ الـذُّلِّ القَنُوْعَـا
وتَفَـرَّدْتُ عَـنِ النَّـاسِ وَأَجْريـتُ الـدُّمُوْعَا
حِيْنَ فَاتَـتْنِي أُصُـولُ المَجْـدِ خَلَّيْـتُ الفُرُوْعَـا

والعيد مناسبة دينية يفرح الناس بحلوله، ويتغنى الشعراء طربًا بقدومه، ولكن للعيد معنى آخر لدى الأحنف، فهو يرى أن فرحته للغني دون الفقير، فالاستهانة بقواعد الدين والأخلاق جعلت هؤلاء الأغنياء يحرمون الفقراء مشاركتهم الأنس والبهجة بقدومه، فالشاعر يتذمر من وضعه، فيقول[٢]:

قَالُوا: أَتى العِيْدُ قُلْتُ: العِيْدُ عَادتُـهُ غَـمُّ الفَقِيْـرِ وتَفْـرِيْحُ المَيَاسِـيْرِ
يَغْدُو الغَنِيُّ غَدَاةَ العِيْـدِ في طَـرَبٍ وَذُو الخَـصَاصةِ في هَـمٍّ وَتَقْتِيْـرِ
قَالُوا: فأَنْتَ، فَقُلْتُ: الفَقْرُ لي سَكَنٌ والُحرْفُ[٣] صَاحِبُ دِيْوَانِي وتَـدْبِيْرِي
تَوَطَّن الفَقْرُ في قَعْـبي[٤] ومَحْبَرتِـي تَوَطُّنَ الجنِّ جـنِّ الـدُّوْرِ في الـدُّوْر
أَلِفْتُ فَقْري فَحَتَّـى لـو تَجنَّـبني فَغُصْتُ في البِئرِ لَمْ يَعْـدِل عـن الـبير

ويقول أيضًا[٥]:

كُلوا واشربوا في عيدكم وتمتعـوا فها أنا عـارٍ مـا علـيَّ لبـاسُ
أبي وأبـوكم آدمٌ غـير أنكـم حظيتم به دوني فلـيس مـساسُ
يسر أناسٌ بالغنى يـوم عيـدهم وتحـزنُ بـالفقر المـبرح نـاسُ

(١) ديوان الأحنف، ص ٣١٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(٣) الحرف: الحرمان، لسان العرب، ص ٤٣، مادة حرف.
(٤) القعب: القدح الضخم، الغليظ الجافي، كما ورد في الديوان، ص ٢٦٤.
(٥) المرجع السابق، ص ٣٠٦.

يظهر من النص السابق مدى الغيظ الذي يملأ قلب العكبري تجاه الأغنياء، الذين استبدوا بأموال الدولة، و لم ينفقوها على مستحقيها من عامة الناس، وما ذلك إلا دافع من دوافع هيمنة مشاعر الاغتراب على العكبري.

وتعتبر زيارة المريض فرضًا دينيا وعُرفًا اجتماعيًّا، ولكن في ظل غياب القيم والأعراف في زمن العكبري، فهو لا يجد من يزوره أثناء مرضه[١]:

إنِّي اعتللتُ فلم أجــدْ لي عائــدًا   مـــن بـــين معرفـــةٍ ولا لـــواذِ

«وأما تجربة الاغتراب عن الآخرين وعن المجتمع، فقد عاشها الكثيرون من شعراء العصر العباسي، في كافة مراحله، وقد ساعد على نمو هذه الظاهرة واتساعها، ما اتسم به هذا العصر من اضطرابات وصراعات، صراع على السلطة، وصراع بين المذاهب، وصراع بين الأجناس، إذ لم يعد العنصر العربي، هو العنصر الوحيد الذي بيده مقاليد الأمور، بل شاركه في ذلك الوافد الأجنبي، وخاصة الفرس» [٢].

فامتزاج العرب بغيرهم من الشعوب، وتتداخل الثقافات المختلفة، خلق جيلاً جديدًا، جيلاً شاع بين بعض أفراده الغدر والخيانة، فيشكو العكبري قلة الصدق، وشيوع الحسد[٣]:

إذا شئت أن تلقى من الناس صادقا   وفيًّـــا أمينـــا صـــالحا غـــير فاســـد

فأما على وجه الصعيد فلـــن تـــرى   من الناس إلا حاســـدا وابـــن حاســـد

وخيانة الصديق لصديقه أشد وقعًا على المرء من خيانة غيره من الناس، يقول في ذلك[٤]:

ينافقك الـــصديق وفيـــه مكـــر   ويبـــدي ظـــاهرا مقـــة وسمتـــا

فكـــن فـــردا وحيـــدا ســـامريا   ولا ترد الوصـــال وأنـــت أنتـــا

فأكثر من ترى يـــشكو صـــديقا   ومـــا عـــاداك إلا مـــن عرفتـــا

والصديق الحق مناط الأمان لصديقه في الضراء والسراء، ولكن العكبري يجد النقيض في

(١) ديوان الأحنف، ص ٢١٦.

(٢) الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، ص ٩٤.

(٣) ديوان الأحنف، ص ١٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٩.

زمنه[١]:

صديقكَ منهم في الرخـــاءِ مـــساعدٌ وفي الـــضرِّ والبأســـاءِ غـــير مـــساعدِ
يَلِيْقُكَ ألفاظًا حكـــى الخـــزَّ لينُهـــا وأفعالُـــه تحكـــي صُـــدورَ المبـــاردِ[٢]
فمن لائِمي في البُعدِ منـــهم تكرمًـــا ومـــن عـــاذِلي في نفـــرةِ المتباعـــدِ
ومنْ طالِبٌ مني شهودًا على الـــذي ذكرتُ لأُكْفَى الجحدَ من كلِّ جاحـــدِ
أقولُ لهُ: جرِّب تَـــرى مـــا رأيتُـــه وتُغْنَى بما شاهدتَ من كُـــلِّ شـــاهدِ

ومما يؤلم الشاعر إحساسه بالظلم والجحود ممن حوله، «فمشاعر الإنسان الحزين الذي انهار أمام مآسي الحياة، ومظالم المجتمع وطبقاته العليا المستغلة، فسقط مجبرا في دروب الكدية يهدر ماء وجهه أمام كل الناس» [٣]، فيقول[٤]:

أنصِفوني فَقَـــدْ مللـــتُ العتابـــا كم أُداري وكم أُقاسي العَـــذابا
إنَّ قومًـــا أنـــصفتُهُم ظلمـــوني جعلـــوا لي إلى الجَفَـــا أســـبابا

ويقول[٥]:

من طالبَ الناسَ بالإنصافِ أحقدهُم ومن نحَـــاهُم إلى الآدابِ عَـــابوهُ
ومن دعَـــاهم إلى فحـــشٍ ومخزيـــةٍ وسوءِ فعـــلٍ وتخلـــيطٍ أجـــابوهُ

إن المواقف الاجتماعية هي من يكشف حقيقة الناس، فكم من أشخاص نتوسم فيهم الخير والصلاح، ولكن نفاجأ بحقيقتهم، (فليس كل ما يلمع ذهبًا)، فالمواقف تكشف معادن الرجال، وفي ذلك يقول[٦]:

مناسبُ الناسِ تخفى في مغارسِهِم سرًّا ويعرضُ فيها الشكُّ والريبُ

---

(١) ديوان الأحنف، ص ١٧١.
(٢) المبارد: جمع مبرد، وهو ما يبرد به الحديد، كما ورد في الديوان، ص ١٧١.
(٣) الحركة الفكرية والثقافية في عكبرا خلال العصر العباسي، عبد الإله علي حسن البلداوي، رسالة ماجستير، مركز عكبرا للبحوث والدراسات، العراق، ص ٢٠٩.
(٤) ديوان الأحنف، ص ٩٦.
(٥) المرجع السابق، ص ٩٥.
(٦) المرجع السابق، ص ١٠٥.

فإن تعالى رجـــالٌ في مناسِـــبِهم ترفعًـــا فالمَحَـــلُّ الـــدينُ والأدبُ
قد يمزجُ الفضةَ البيضاءَ صـــائغُها لعلةٍ ويُغـــشُّ المـــسكُ والـــذهبُ
فكيفَ يسلمُ من في طبعه شَـــرَهٌ وذكرهُ وهواهُ اللـــهوُ والطـــربُ

ويقول(١):

وكم من رجالٍ أهلِ زيٍّ وهيئـــةٍ وهم عندَ حاجاتِ الكرامِ قُبـــورُ

ويشعر بالأسى تجاه جاره الذي كان يأمل منه أن يراعي حق الجوار، ويكون ملاذًا له وقت الحاجة، فيقول(٢):

جـــيرانُ بـــيتي كنـــتُ آملـــهم عنـــد المهـــمِّ وجدبـــةِ البلـــدِ
فغدوتُ من جاري علـــى خطـــرٍ بين [الشِّمات] (٣) وسطوةِ الحسدِ

وأكثر ما أثار غضب الشاعر وسخطه، ذلك الانحراف الذي رفع من قيمة الحمق والغباء، ليحط من قيمة العقل والعلم، والأدب والفضل، فيشكو العكبري تبدل الأخلاق وانحراف القيم، فغابت المروءة، وشاعت الأنانية، فيقول(٤):

إذا اعتنقَ الوقارَ المـــرءُ أضـــحى أسيرًا أو علـــى خُلُـــقِ الأســـيرِ
وإن خلعَ العِذارَ(٥) غـــدا أمـــيرًا سُـــرورًا أو أســـرَّ مـــن الأمـــير

فالعكبري يتذمر من الأوضاع الاجتماعية التي سادت في عصره، وجعلته أسيرًا للاغتراب، «ويرتبط الاغتراب الاجتماعي بالأنظمة الاجتماعية الفاسدة بوجه عام، حيث يشعر الفرد باستيائه وقلقه وعجزه عن تحقيق رغباته أمام ما يسود مجتمعه من تلك الأنظمة المرفوضة» (٦).

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) بين المعقوفين كلمة غير واضحة في الأصل والتعديل من المحقق.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٥) خلع العذار: خرج عن الحق، وانهمك في الغي، لسان العرب ٤/ ٥٥٠.

(٦) ظاهرة الاغتراب في شعر إبراهيم ناجي وعبد الله الفيصل عرض وتفسير وموازنة، عزت محمود علي الدين، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

وحتى بعض التجار أضحى الظلم شعارًا لهم[١]:

برمتُ بما أراهُ وضاقَ صدري ... بمن ألقاهُ من قَومٍ تِجَار

أذُمُّ زمانَهم ظُلمًا وجورًا ... وهم بالذمِّ أولى في العِيَار[٢]

وفعل الخير صار مستنكرًا بين الناس، بينما لا ينكرون على الفاسق فعله، يقول[٣]:

وصار الرجل الخيِّرُ بين الناسِ أغلوطهْ

ولا ينكر مخلوق على الفاسق تفريطه

وقد قل الوفا في الناس فالآداب مسقوطهْ

ويعبر العكبري عن اختلال الموازين، وكيف أن الجميل صار قبيحا قائلاً[٤]:

كم جميلٍ صنعتهُ مع قومٍ ... صيروا ذلك الجميلَ قبيحا

بطباعي عملتُ ما أنكروه ... مثل ما ينكرُ السخيُّ الشحيحا

ويقول[٥]:

طلبتُ في الناسِ ما لا ينهضونَ به ... حرًّا وفيًّا أبيًّا غير منتقدِ

من أين ذاك وأهل الوقت قد طبعوا ... على الخلافِ ونقضِ العهدِ والحسدِ

وأهل زمانه هجروا المبادئ السامية، وساد فيهم البخل والجحود، يقول في ذلك[٦]:

وأهل زماننا هجروا المعالي ... ومال بهم إلى البخل الجحود

هززتهم بأشعاري فشحوا ... وهل يندى لعاصره الحديد

رجال يحسدونك في قليل ... وعندهم الدراهم والعبيد

فالأحنف يتذمر من الناس، ويرى نفسه غريبًا في هذا الزمن الذي اختلت فيه القيم

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٢٤.

(٢) العيار: كل ما تقدر به الأشياء من كيل أو وزن، والعيار: ما اتخذ أساسا للمقارنة. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٥.

(٤) ديوان الأحنف، ص ١٥٣.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٦) المرجع السابق، ص ١٩١.

والموازين، وأصاب أفراده الضيم، بين أناس أوغاد لا يقدّرون الفضيلة والمبادئ الاجتماعية. وهو لا يطلب المستحيل، بل ينادي إلى العدل الاجتماعي والمساواة بين أطياف المجتمع في الحقوق.

فالشاعر يعانِي من صعوبة التواصل والتعامل مع أهل زمانه، وذلك لانهيار القيم، واختلال المبادئ، فقد وقع ضحية لهذا المجتمع، «فهو لا يجد غير الألم الذي يتراوح بين الثورة على الذات والمجتمع، وبين الاستسلام القاتل المشوب بالتبريرات والتخريجات الانهزامية، التي لا يمكن أن يتستر عليها رجل مثل الأحنف العكبري، تزود بعدة المكدين ومشى في دروبهم» [1].

(١) الحركة الفكرية والثقافية في عكبرا خلال العصر العباسي، عبد الإله علي حسن البلداوي، رسالة ماجستير، مركز عكبرا للبحوث والدراسات، العراق، ص ٢١٠.

الفصل الرابع

الاغتراب الذاتي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب الذاتي.

المبحث الثاني: صور الاغتراب الذاتي.

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب الذاتي:

«عرف (سيمان) الاغتراب عن الذات بأنه عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه، وشعوره بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياة الفرد بلا هدف، ويحيا لكونه مستجيبا لما تقدِّم له الحياة دون تحقيق ما يريد من أهداف، وعدم القدرة على إيجاد الأنشطة المكافَأة ذاتيا» [١].

ونجد ماركس يستخدم تعبير اغتراب الذات بمعنيين: أحدهما يقوم على أساس «أن عمل الإنسان هو حياته، وأن إنتاجه هو حياته في شكل متموضع، ومن ثم فإنه عندما يغترب عنه فإن ذاته تغترب أيضا»، وأما المعنى الثاني فيشير به ماركس «إلى انفصال الإنسان عن حياته الإنسانية الحقة، أو الطبيعة الجوهرية، وبهذا المعنى فإن ماركس يقصد بالاغتراب عن الذات الفقد الكلي للإنسانية» [٢].

وأما الاغتراب الذاتي عند روسو: «فيعد ظاهرة تاريخية تنشأ تحت ظروف التفاوت وانعدام العدالة بين الناس وغياب الحرية، وضياع الفطرة الأصلية بين البشر، حيث النفاق الاجتماعي، والتزييف» [٣]، وهذا ما كان يعاني منه الأحنف فمن خلال استعراضنا للاغتراب الزماني والمكاني والاجتماعي و...إلخ، تبين لنا مدى اغتراب الشاعر، ومدى تفاوت الظروف الاجتماعية والاقتصادية بين أطياف المجتمع، وكما يرى روسو فـ «إن اللامساواة سبب في اغترابهم الذاتي» [٤].

ويعبر المدني عنه بقوله: «الاغتراب عن الذات إحساس مقيت صعب ينهش الفؤاد، ويولد في النفس الشعور بالحزن والاكتئاب، وحمّى وجع القلق والخوف، وهو أيضًا غربة النفس والروح عن المكان والزمان والبشر، وعدم التكيف مع من يحتلون كل خرائط الوجدان، وأيضا هو أن ينسلخ المرء عن عالمه البشري، ويمارس طقوس الوحدة، ويتقوقع داخل نفسه، أو يغترب عن ذاته، ويصبح غير قادر على التصالح معها، وكذلك هو إحساس

---

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب، عبد اللطيف خليفة، ص ٤٠.

(٢) الإنسان المغترب عند ايرك فروم، د حسن حماد، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٩٦.

(٣) الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، أميرة بنت علي الزهراني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٢٦هـ-١٤٢٧هـ ،ص٣١.

(٤) الاغتراب سيرة ومصطلح، ص ٧٧.

قاتل، يشعر المرء بأنه غريب حتى عن ملامحه وعن نفسه، وهو الشعور الدائم بالانهزامية والسوداوية، والغربة الداخلية» [١].

(١) جريدة الرأي، صباح المدني، ١٩-٥-٢٠١١ الخميس.

المبحث الثاني: صور الاغتراب الذاتي:

١- الاغتراب عن الذات الأصلية:

أدت الظروف المتباينة وعوامل الاغتراب التي تحدثت عنها سابقا، إلى غربة قاتلة ومريرة، وهذا ما لمسناه في ديوان العكبري، فشعراء الكدية عبروا عن اغترابهم الذاتي بممارسة الكدية والتسول، فكون الإنسان يذل نفسه من أجل المال، ويخرج من صورته الحقيقة إلى صورة أخرى وهي صورة المكدي، فهو يتخلى عن ذاته ويضرب بكرامته عرض الحائط، فيرى أنه لا وسيلة لكسب المال في زمانه إلا بهذه الطريقة، فنجد الأحنف يقول[١]:

قد قسم الله رزقي في البلاد فما ... يكاد يدرك إلا بالتفاريقِ
ولست مكتسبا رزقا بفلسفةٍ ... ولا بشعر ولكن بالمخاريقِ
والناس قد علموا أني أخو حيلٍ ... فلست أنفق إلا في الرساتيقِ

وقوله[٢]:

قد كانتِ الكُديةُ إقطَاعي[٣] ... فاستعصَمَ الناسُ بأطباعِي

وقوله[٤]:

سؤددي سخف ومكتسبي ... بمخاريقي ومضطربي

وقوله[٥]:

يقولُ الأحنفُ البائسُ قدْ حوصرتُ في جلدِي
فلولاَ خشيةُ الناسِ ... ومطلُ النقدِ بالوَعْد
لما تبتُ من الشَّحذِ ... من المهدِ إلى اللَّحد

نجد في الأبيات السابقة تجلي الاغتراب عن الذات، فالعكبري أحيانًا يمتهن كرامته من أجل كسب المال، ويتخلى عن القيم الإنسانية، ويتسول بطلب العطاء تارة، وبالاحتيال على

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ٣/ ١١٤.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٣١٩.
(٣) إقطَاعي: مباحة لي، من أقطعه الشيء: أباحه له. كما ورد في الديوان، ص ٣١٩.
(٤) المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٥) المرجع السابق، ص ١٦٢.

الناس تارة أخرى، «لقد اغترب هؤلاء الشعراء عن ذواتهم الأصيلة، وحلت محلها ذواتٌ زائفة، أخلت برسالة الشعر السامية، فصرفته إلى الاستجداء والكدية، وغدا كثير من شعراء العصر العباسي متسولين، امتهنوا قيمة الشعر، وحطوا من قيمة أنفسهم» [١].

ولكن نراه في أبيات أخرى يبكي على كرامته وفقدانه لذاته، في الكدية والتسول، كما في قوله[٢]:

وأطيب من سؤال الناس عنـــدي وإن لم يبخلوا قـــضم الحجـــارهْ

ونراه يتضرع إلى الله طالبا منه أن يغدق عليه رزقه، حتى يحفظ ماء وجهه عن الناس فيقول[٣]:

فيا ربِّ اعْطِـــني منـــها كـــثيرًا حـــلالاً في الغُـــدوِّ وفي الـــرَّواحِ
لأسْتغني بها عن بـــذلِ وجهـــي إلى يومي مـــن الأجَـــلِ المتـــاحِ

وهو يملك نفسًا أبية، لا تقبل الظلم فيقول[٤]:

تأبي لي الضيمَ نفسٌ كُلما افتقرتْ عـــزَّتْ وتاهـــتْ وإنْ أَوْدَى بهـــا الحَـــرضُ

فمن خلال ما سبق يتضح أن العكبري لم يكن راضيًا عن امتهانه للكدية، ولكن ظروف الحياة أجبرته على ذلك، ونراه يقول[٥]:

إنِّي اضطُهِدتُ و لم أخترْ ســـؤالهم ما صيَّر الله مختـــارًا كمُـــضطهدِ

ويقول أيضًا[٦]:

وتكـــــسّبٌ قـــــد شـــــفَّني مـــا فِيـــه مـــن ذُلِّ اكتِـــسَابه

ومن صور الاغتراب عن الذات لدى العكبري التنجيم، فقد مارس هذه المهنة في مرحلة

(١) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دراسة في المفهوم والرؤية والفن، صغير العتري، ص ١٧٤، ١٧٥.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٥٠.
(٣) المرجع السابق، ص ١٥١.
(٤) المرجع السابق، ص ٣١٠.
(٥) المرجع السابق، ص ١٠٨.
(٦) المرجع السابق، ص ١٠٨.

من مراحل حياته، وقد تطرقتُ لهذا الموضوع سابقًا، وهو يعترف بذلك بقوله[١]:

مـــنجمٌ شـــاعرٌ لـــه همـــمٌ نِيْطَتْ بِبَهْرَامِـــه[٢] وكِيْوانـــه[٣]

وكانت النساء تفد إليه، فيخبرهن عن أمور تحدث لهن، ويأخذ المال مقابل ذلك، وكان يتعرض للشتم إذا لم يتحقق لهن ما قاله، فيقول[٤]:

أدعـــو النـــساءَ إلى النجـــومِ مُبـــشِّرًا ببُخُوتِهنَّـــهْ

يـــأخُذْنَ عنِّـــي الـــذي سَـــخَتْ علـــيه عُيُونَهُنّـــهْ

فـــإذا رجعـــتُ و لم يكـــنْ مـــا قلـــتُ فيمـــا نالَهُنّـــهْ

يَـــشـــتِمْنِني بجُنُوهِنّـــه ســـفاهة وأسُبـــهُنَّهْ

ويوضح لنا سبب اتجاهه للتنجيم، فيقول[٥]:

ما تكـــسبت بـــالتنجيم حـــتى صار طوع الأيـــام غـــير مطيـــع

وهو يعترف ويصرح أنه لا يجيد التنجيم[٦]:

أُنمسُّ[٧] بـــالنُّجومِ بغـــيرِ فهـــمٍ وأعبـــثُ بالتمـــائمِ والعطـــوف

وأُرجف بالكُسوفِ ولستُ أدري مكانَ الميل من وتـــدِ الكـــسوفِ

وينصح من يؤمن بالتنجيم أن يفوض أمره إلى الله، فهو المدبر لهذا الكون[٨]:

يا منْ تدبر بالنجـــوم كُرورَ ليـــلٍ أو نهـــارْ

فوض أمورك في الخطوبِ إلى المدبرِ للـــسِّرارْ

فالأبيات السابقة تعكس لنا بعض من مظاهر البيئة الفكرية والمادية، التي تمثلت في ضعف الوازع الديني، والإيمان بالخرافات لدى بعض فئات المجتمع، فالأحنف يغترب عن ذاته

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠٧.

(٢) بهرام: المريخ، كما ورد في الديوان، ص ٥٠٧.

(٣) كيوان: زحل، كما ورد في الديوان، ص ٥٠٧.

(٤) ديوان الأحنف ٥٠٤ص.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٦٦.

(٦) المرجع السابق، ص ٣٣٦.

(٧) أنمسُّ: ألبس، وأدلس، وأتعلق. كما ورد في الديوان، ص ٣٣٦

(٨) المرجع السابق، ص ٢٧٠.

التي لا تؤمن بالتنجيم، ويقوم بعمل المنجم الذي يدرك بزعمه بعض من الأمور الغيبية، محاولاً إثبات ذاته، وتعويض إحساسه بالدونية.

ولقد تحدثت في الفصل الأول عن شيوع شرب الخمر في العصر العباسي، وأنها انتشرت عند مختلف أطياف المجتمع «فالخمرة وتعاطيها تمثل لونا من ألوان الغربة، ينفصل الإنسان عن الواقع بكل ما فِيه، وينفصل عن ذاته المثقلة بالمجتمع» [١]، وقد كان لضعف الوازع الديني أثره في نفوس هؤلاء، ورأينا تخبط العكبري، وكيف كان يجاهر بشربه للخمر، ثم يعود إلى صوابه ويقول بتحريم الخمر، فالاغتراب الذاتي يعني في بعض أوجهه «انفصال الإنسان عن حياته الحقة أو الجوهرية» [٢]، فهذا ما نجده لدى العكبري عندما ينفصل عن إنسانيته، ويجري خلف شهواته، ويصرح بمجونه واحتسائه للشراب، ومن ثم ما يلبث أن يتراجع ويتحدث عن تحريم الخمر، وهذا من خلال ما نعرض له من أبيات توضح ذلك، فيقول في شرب الخمر[٣]:

ما تستردُّ يمينه قَدَحًا ... إلا تلتَهها الكأسُ في الطلبِ
من قَهْوةٍ جلَبَ السُّرورُ بها ... طربَ الغِنا من معدِنِ الطربِ
خَفيتْ مناسِبُها فليس تُرى ... مَنسوبةً بالكرمِ والعنبِ
فشَرِبتُها ورقصتُ في حنَفَي ... رقصَ الزُّنوجِ على صدَى القصَب[٤]

ونجد أنه يجاهر بالمعصية، و لم يكترث بالمجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، يقول أيضًا[٥]:

نزعتُ إلى الغوايةِ والفتونِ ... وقِدْمًا كنتُ أركضُ في المجونِ
إلى كم ليلةٍ قد بتُّ فيها ... على فرحٍ وعيشٍ مستكينِ
يُسقّيني الُمدَامةَ ذو اعتدالٍ ... يُنازعُ مُهَجتيَّ على سكونِ

(١) الغربة في الشعر الجاهلي، الخشروم، ص ٢٣٠.
(٢) الاغتراب عند ايريك فروم، حماد، ص ٦١.
(٣) ديوان الأحنف، ص ١٢٦.
(٤) القصب: المزامير. كما ورد في الديوان، ص ١٢٦
(٥) المرجع السابق، ص ٥١٦.

ونراه يقول[١]:

وشَرِبتُ منــه الخمــرَ إلا أنــه يفــنى وهــمُّ المحــدثاتِ مقــيمُ

وفي النهاية يصرح بتحريم الخمر فيقول[٢]:

وقالوا: الخمرُ قلتُ لهــم: حــرامٌ على نــصِّ الــشريعةِ والمثــاني

وقلتُ لهــم: كتــابُ اللهِ بــيني وبيــنكمُ وتفــسيرُ القُــران

٢- الإحساس بالدونية:

وقف علماء النفس على تعريف عقدة النقص بأنها: «استعداد لاشعوري مكبوت، ينشأ من تعرض الفرد... لمواقف كثيرة متكررة، تشعره بالعجز والنقص والفشل» [٣]، ولابد من التفريق بينها وبين الشعور بالنقص، وهو عبارة عن «حالة نفسية يدركها الفرد إدراكا مباشرًا ويعترف بها» [٤]، فشعور المرء أنه أقل من غيره لها أسبابها، فقد يكون بسبب ضعف أو عجز، أو مرض، فالعكبري كان يعانِي من عيب خلقي في رجله؛ مما جعل الناس يلقبونه بالأحنف، وهو يرى أن حنفه كان السبب في عدم وصوله للمكانة الاجتماعية التي كان يطمح لها، ويرى أنه يستحقها، فيقول[٥]:

إنِّي امرؤ قــد أضــرَّ بي حنفــي قَصَّــر بي عن منــازلِ الــشرفِ

وعندما تجتمع العاهة والفقر فإن إحساس الاغتراب يتضاعف، فنرى العكبري يقول[٦]:

قد شفَّني حنفٌ مع الإفلاسِ والفقرُ داءٌ مالهُ من آسي

إلا الدَّراهِمَ وهيَ غيرُ مجيبةٍ ويُجيبُ ما لم أدعُهُ إفْلاسي

فالأبيات مفعمة بالغربة والاغتراب، وهذا ما نجده في الألفاظ التي استخدمها الشاعر:

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٥٢٠.

(٣) أصول علم النفس، أحمد عزت راجح ، ط٧، ١٩٦٨م، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ص ١١٩.

(٤) ص ١١٩.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣٥٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(حنفي، الإفلاس، الفقر).

فالعكبري يعترف بعاهته وفقره، وأن عاهته جعلته يتخبط في غياهب الغربة، وتشتد وطأة الاغتراب الذاتي إذا أحس بالدونية، وأنه أقل حظًّا من غيره، وكذلك معايرة الناس له فيقول[١]:

إذا مـــا عـــابني أبنـــاءُ جنـــسي ... بنقصِ الحـــظِّ والكـــسبِ الـــضعيفِ
وزادوا في الترفّـــعِ واسْـــتَطالوا ... بطيبِ العيشِ عـــن تـــرفٍ وريـــف[٢]
بمســـقعةٍ[٣] وديـــنٍ واختيـــالٍ ... ورامـــوا العـــزَّ من ذلٍّ حنيـــفِ[٤]
بسطتُ لديهمُ بالضعـــفِ عذري ... وعجـــزي بالقنـــاعةِ بالطفيـــفِ

ولعل المتأمل للأبيات يلاحظ الألفاظ المتشحة بالسواد (نقص الحظ، الكسب الضعيف، ذل، عجزي، ضعفي) التي تفصح عن الألم والمعاناة، وتظهر رؤية الشاعر وشعوره، فالناس من حوله يعايرونه بفقره، وقلة حظه.

ويشكو العكبري من كبر سنه ومرضه فيقول[٥]:

ضـــريرٌ أحنـــفٌ شـــيخٌ كـــبيرٌ ... وحيـــدٌ مفـــردٌ وجـــعٌ غريـــبُ
فقـــيرٌ والفقـــيرُ حليـــفُ ضـــرٍّ ... ذليـــلٌ إنِّ ذَا خـــبرٌ عجيـــبُ

فهو يصور لنا إحساسه بالدونية والاغتراب، ولاحظنا لغة مغتربة جسدت لنا عمق اغترابه كقوله: «ضرير، أحنف، وحيد، مفرد، وجع، غريب، فقير، ذليل»، فهذه المفردات النكرة التي تلامس مشاعرنا وتشعرنا بمدى الآلام والأوجاع التي تعتصر فؤاده، فالعكبري قد كبر وكبر معه اغترابه، بل ازدادا ألمًا واغترابًا، فقد أصبح ضريرًا بجانب حنفه، وظل يعاني من الوحدة والفقر، وعندما نربط دلالة التنكير برؤية الشاعر نرى دلالة واضحة على الإهمال والتهميش الذي يصاحب الغربة.

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٦٥.

(٢) الريف: الخصب والسعة في الرزق. كما ورد في الديوان، ص ٣٦٥

(٣) قد يكون المقصود منها الأقوال والعبارات القوية والحجج، مأخوذة من سقعت المتكلم إذا جبهته بـــالقول. كمـــا ورد في الديوان، ص ٣٦٥

(٤) حنيف: مائل. كما ورد في الديوان، ص ٣٦٥

(٥) المرجع السابق، ص ١٢١.

ويقول أيضًا[١]:

أعابُ على اعوجاجِ الرجلِ ظلمًا وليس العيبُ فيها عيبَ فعلي
ولو أني قَدَرتُ لصُغتُ رِجْلي كأحسنِ صورةٍ وأصحِّ رجْلِ

فلم يكتف بشعوره الداخلي بالنقص، بل واجه معاناته مع طائفة من المجتمع، التي تعيب عليه عاهته، مما أجج إحساسه بالغربة، وازداد إحساسه بالنقص والذل.

ويعترف بضعفه وعجزه فيقول[٢]:

إذا أمسك الشيخُ العصا بيمينهِ فكبّر عليهِ أربعًا فهو هالكُ
يَملُّ ثواهُ الأقربونَ ويغْتدي طريدًا وقد ضاقتْ عليهِ المسالكُ

وعندما كبر ازداد الأمر سوءًا، وأصبح عاجزًا، فهو لا يقوى على تحمّل أعباء الحياة، وضاقت عليه الطرق، فالإنسان في الكبر يحتاج إلى من يسانده، ويقف إلى جانبه، والعكبري يفتقد ذلك، فرؤيته لهذا الواقع المؤلم يولّد الشعور بالانهزام، والقلق والإحباط.

ويشكل فقد البصر قلقًا يؤرق العكبري، فيقول[٣]:

لما أُصِبتُ بناظريَّ أُصبتُ بالخطرِ الكبيرِ
أصبحتُ حيًّا مثلَ ميتٍ أو كَمَقبورِ أسيرِ
كانَ العزيزُ يخافني فاليومَ أخضعُ للحقيرِ
كيف العزاء إذا سمعتُ: تناولوا بيدِ الضريرِ

فالبصر نعمة لا يشعر بها إلا من فقدها، ويشبه نفسه بالميت بعد أن كان حيًّا، ويتحسر على حاجته لمساعدة الناس له، وقد اجتمع له ظلام الغربة، والظلام الناتج عن فقد البصر، ففيه إشارة إلى المعاناة التي تحتشد في صدره ومشاعر القلق، قلق العمى، والعجز الذي يسيطر عليه.

ويقول أيضًا[٤]:

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٩.
(٢) ديوان الأحنف، ص ٤٠١.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

أحـــقُّ النـــاسِ بالـــذلِ الفقـــيرُ وأقـــربهم مـــن الـــضرِّ الـــضريرُ

وقد عبر بشكل واضح عن وحدته وغربته فقال[١]:

أنا بالوحـــدةِ في بيـــت شـــعثٍ في همـــومٍ وانفـــرادٍ وحـــزنْ

لـــيسَ للوحـــدةِ إلا واحـــدٌ هُـــو للواحِـــد عـــونٌ وســـكنْ

فهو يعبر لنا عن قلقه وحزنه، فهو وحيد مهموم، ولكنه يعزي نفسه بوجود الله معه، فالله سبحانه وتعالى عون وسكن له.

ويقول متعجبًا من صبره على معيشته[٢]:

عجبتُ من قَلبيَ ما أصبَره ومن شَقَا بختيَ ما أقذرهْ

رزقي ضعيفٌ وبهِ قلةٌ كأنه قد شدّ في مقطرهْ

حسبي من الحرفةِ أني امرؤٌ معيشتي من باطنِ المِـحْبَرهْ

ومنـــزلي مُستهدمٌ مقفر مُنفردٌ في وســـط المـــقبره

يتعجب كيف استطاع أن يصبر على هذه المعيشة، وبدأ يسرد لنا حياته البائسة، مبتدئًا برزقه القليل، ويشبهه بالذي شد في مقطرة، إنه تصوير معبر عن شدة الفقر والإفلاس، ثم يصف لنا منـــزله، وينعته بعدة صفات، ولك أيها القارئ الكريم أن تتخيل ذلك المنـــزل «مستهدم، مقفر، منفرد، في وسط مقبرة»، فقد عبر لنا عن ملامح منـــزله وكيف يبدو، فوصفه لمنـــزله بهذه الصفات يوضح لنا البون الشاسع بينه وبين من يسكن القصور الشاهقة في عصره، ويكشف مدى الألم والمعاناة التي تعيشها الطبقات المعدمة في ذلك العصر، وقد سلب منه القلق متعة النوم، فالاغتراب يولد في النفس الأرق والهموم، فنفسه مشحونة بالحرمان، فنراه يقول[٣]:

حظِّي من النومِ بعد الهَجْعـــةِ الأرقُ ومِنْ نهاري على أَنبائـــهِ القلـــقُ

كم حسرةٍ نكأتْ قلبي وكم غُصصٍ جُرِّعتُها من سفيهٍ شـــأنهُ الحمـــقُ

وفيَّ صـــبرٌ علـــى مـــا بي لمعـــرفتي أنَّ الزمانَ على تخليطِـــه خَلَـــقُ

(١) المرجع السابق، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٨.

بأيِّ حِلمٍ أُلاقــي مــا بُليــتُ بــه وأيُّ قلبٍ لمثلــي لــيس يحتــرقُ
فقرٌ وضيمٌ وإفــرادٌ وبِــي حنــفٌ وغربةٌ حــسراتٌ كُلــها نــسَق

فالشاعر قد أصابه الأرق والقلق، وتجرع من المرارة كؤوسها، فظل هاجس القلق قائمًا في ظل الفقر والعجز، والحرمان من ملذات الحياة.

ونلاحظ استخدامه للأسلوب القصصي حين يروي لنا موقف الأطفال منه، فيقول(١):

بكــى صــبيٌّ فــرأتْ أمُّــهُ شخصي وقد أقبلــتُ في الباعَــه
أمشِي وفي كفــي عــصا أتقــي بهــا وأهــوي ســاعةً ســاعَه
فَفَزَّعــتْ بي طِفْلــها فانــضَوى خوفًــا إليهــا يُظهــر الطاعَــه
وكنــتُ أيــامَ شــبابي إذا لبِــستُ خُفــينِ ودُرّاعــه
سرَرتُ مــن أبــصرني مُقــبلاً بمُقلــةٍ شــهلاءَ خدَّاعــه
فالحمــدُ لله وشُــكرًا لــه قدْ صِرتُ بعدَ الــشيبِ فزّاعــه

فيوضح لنا كيف أن حاله تغير وتبدل بعد الكبر، وأن شكله أصبح مخيفًا بعد ما كان يدخل السرور على كل من يراه، فتلك الأم أضحت تخوف ابنها منه، فهو كالفزاعة التي تدخل الرعب في النفوس، فهذه صورة مؤلمة تعكس موقف بعض أفراد المجتمع من العكبري ونظرتهم له؛ مما يشعره بالاغتراب والأسى.

فكون العكبري يعيش في مجتمع لا يمنحه حقوقه، فهو يرفض ما يدور حوله ويثور غاضبا من سوء حاله، فطبيعة الإنسان لا تحتمل الظلم، وخاصة إذا كان الظلم نابعًا من بيئته التي ينتمي إليها، فإحساسه بالفقر وفقده للناس الأوفياء في عصره زاد من معاناته، وارتفاع رصيد الاغتراب لديه، فيقول(٢):

أنــا في خُلــةٍ وقلــةِ مــالِ واغتــرابٍ في معــشرٍ أنــذالِ
بالأمــاني أعــيشُ لا بالمعــاني فَغِــذائي حــلاوة الآمــالِ

فهو يصرخ شاكيا من بؤسه وشقائه، فجاءت كلماته مؤطرة بالحزن والألم، فهو في

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٣٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٧.

معركة دائمة مع الحياة فيقول(١):

يـــا سَـــائلي عـــن سِـــيَري	بعـــدَ حلـــــولِ الكـــبرِ
وبعـــــدَ فقـــدي للقُـــوى	بعـــدَ ذهـــابِ البـــصرِ
ومـــــشيتي في حنفـــــي	علـــى وُجُـــوهِ الغـــررِ
يكفيـــــكَ مـــــا عانيتـــــهُ	عنْ كـشفِ مـا فِـي خـبري

ويقول(٢):

اسمعُـــوا مـــني ولا حـــرجُ	إنـــي أعمَـــى وبِـــي عـــرجُ
ومـــريضُ الجـــسمِ مـــن ســقمٍ	وبـــه قـــد تتلـــف المهـــجُ
فـــأراني فيَّ قـــد نَزَلـــتْ	بكمـــــالِ آيـــةُ الحـــرج

ويقول(٣):

إلى مَـــنْ أشـــتكي مـــا بي	مـــن الإفـــلاسِ والجُهـــدِ
لقـــدْ أتعـــبني الـــدهرُ	بقـــصدٍ شـــرٍّ مـــا قـــصدِ

إن تلك النبرات الحزينة تعبير مؤلم عن ضجره من كثرة الشكوى، فهو يشتكي من الفقر، فالناس تتصارع من أجل البقاء، فالفقير لا مكان له فهو مهمش ومحتقر بين الناس.

وهكذا، تجلى الاغتراب عن الذات في شعر العكبري، وغربة الشاعر لم تكن غربة خيالية، بل كانت غربة ذاتية فرضتها ظروف الحياة، فأشعاره كشفت لنا مناحي متعددة من حياة المجتمع في العصر العباسي، وصورت لنا مظاهر الفساد وما يقابلها من الفقر، وأخلاق بعض فئات المجتمع، فانغماس الشاعر في عالم الكدية، والتنجيم، والخروج عن المبادئ والقيم بالمجاهرة بشرب الخمر... ما هي إلا تخلٍّ عن الذات، وتحلل من القيم والمعايير الدينية والأخلاقية.

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٦.
(٢) ديوان الأحنف، ص ١٤٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١٥٨.

٣- التوجس والقلق:

يعد القلق مظهرًا من مظاهر سوء التكيف مع المجتمع، فمتى ما أحس الفرد بعدم تقبله للمجتمع فإنه يشعر بالقلق، «وإذا لم يتقبل المرء نفسه والجماعة التي يعيش فيها فإنه يتعرض للمواقف الإحباطية، التي تجعله يشعر بالعجز والفشل، وعندها تسوء درجة التكيف الاجتماعي، وهذا ما يدفعه إلى الانطواء أو العدوان لجذب أنظار الآخرين إليه، وإذا لم يتكيف المرء مع واقعة ومجتمعة بل مع نفسه فإن حالة من الخوف الغامض الشديد تتملكه، وتسبب له كثيرًا من الكدر والضيق والألم، وذلك ما يسمي بالقلق» [١].

والعصر العباسي كان يعج بالمتغيرات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، كما سبق أن تحدثنا عنها بتوسع في عوامل الاغتراب، وهو ما دفع بالعكبري وغيره من الشعراء إلى أن يعيشوا حياة يحيط بجوانبها القلق.

ونجد عند العكبري أبياتًا كثيرة عبر فيها عن توجسه وقلقه، فنراه يقول[٢]:

وطالَ الليلُ حتى لستُ أدري ... أليلُ الموتِ أم ليلُ الرجوعِ
أراعي الصُّبح وهو يفرّ منّي ... كما ولى الشتاءُ عن الربيعِ
فيا نومي امتنعت عليَّ حتى ... عصيتُ على المُعاتب والشفيعِ
ألا يا شمسُ ما بطّاكِ عنَّا ... ويا ليلُ اغْتفلتَ[٣] عن الركوعِ
أظنُّ الشمسَ واصلها حبيبٌ ... فألهاها الحبيبُ عن الطلوعِ
وأن الليلَ أوقفه اعتبارٌ ... أنينٌ واكتحالٌ بالدموعِ

فالعكبري يشكو من طول الليل الذي يستغرق فيه، ويحس بطوله وبطئه عليه، وأن الشمس قد تأخرت في الظهور، وهذه الفكرة قد تغنى بها الشعراء منذ العصر الجاهلي، وتفنن الشعراء في صياغتها، وغالبًا ما تكون بدافع الحب والهوى.

---

(١) ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ) ، عفيف عبد الرحمن، ص ١٦.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٣٢٠.

(٣) اغتفلت: سهوت وتركت. كما ورد في الديوان، ص ٣٢٠ .

وجاءت ألفاظه معبرة عما يشعر به من خوف وقلق تجاه الحياة، (طال الليل، أليل الموت، أم ليل الرجوع، أنين، اكتحال بالدموع).

ويقول[١]:

خضت بحار الخوفِ في ليلةٍ مظلمة في مسلك وعــرِ
واضطرب البحر بأمواجه عليّ فالمركبُ في الحَجْرِ
وقد شهدتُ الحرب في ساعةٍ يضيق فيها واسعُ الصدرِ

ويختار العُكْبَرِيّ البحر ليعبر به عن خوفه وقلقه، فيشبه نفسه الخائفة بمن يخوض غمار البحر تحت جنح الظلام، وأمواج البحر تصارعه، فكأنه خاض معركة مع البحر، وهي صورة تثير الخوف وتنفر من البحر.

والسهر وعدم النوم فيه إشارة توحي بالقلق كما يعبر عن ذلك بقوله[٢]:

سهرتُ وما مثلي ينامُ ويرقدُ وفي القلب مني جمرةٌ تتوقدُ
وذاك لأني ساكنٌ في غريفةٍ وأفردتُ فيها والغريبُ يفرّدُ
مطبَّقة كالسجن بل هو دونها معاييها في كل يوم تزيّدُ

ويعبر عن قلقه بفقد الشباب ووصوله مرحلة الكبر[٣]:

يا ويح من فقد الشباب وغيرت منه مفارق رأسه بخضابِ
يرجو عمارة وجهِه بخضابه ومصير كلِّ عمارةٍ لخرابِ

ويقول أيضًا[٤]:

سعتِ الأيامُ في همك فالجفن قريحُ
آخر العيش هو الموتُ ويحويك الضريح

والشاعر لم يكن ينعم بالراحة والدعة في هذه الحياة، إنما كان يشكو الإفلاس والإجهاد؛ مما جعله يعيش في دوامة الخوف والقلق فيقول[١]:

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.
(٢) ديوان الأحنف، ص ١٩٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١١٨ .
(٤) المرجع السابق، ص ١٥٤.

إلى من اشتكي ما بي   من الإفلاس والجهدِ
لقد أتعبني الدهرُ   بقصدٍ شر ما قصْدِ

ويعبر عن قلقه من مجيء الشتاء بقوله[٢]:

إذا جاء الشتاء على فقير   ولم يحتلْ له في الصيف زادا
ولم يحتل له ثوبين أيضًا   تردّ البرد عزما واجتهادا
وأقلقه ارتعاد يوم قــرٍّ   فزاد الله رِعدته ارتعادا

ويقول[٣]:

مطـــرٌ مـــا يفتـــر   ومعــــاش مقتــــرُ
وزمــــان بــــه الكــــريمُ كئيــــبٌ محــــسرُ
ووعيــــدٌ وموعــــدٌ   ونكــــيرٌ ومنكــــرُ

يشير في الأبيات السابقة عن قلقه من تتابع الأمطار، وقلة ذات اليد، فالإحساس بالحاجة إحساس موجع ومؤلم، خاصة في زمن غابت فيه العدالة الاجتماعية.

وصور العُكْبَرِيّ صراعه مع القلق الذي أرق مضجعه وأقض حياته[٤]:

حظّي من النومِ بعد الهجعةِ الأرقُ   ومن نهاري على أنبائهِ القلقُ
كم حسرة نكأت قلبِي وكم غُصصٍ   جُرعتُها من سفيهٍ شأنه الحمُق
وفيّ صبرٌ على ما بي لمعرفتي   أن الزمان على تخليطهِ خَلَقُ
بأيّ حلم ألاقي ما بُليتُ به   وأي قلب لمثلي ليس يحترقُ
فقرٌ وضَيمٌ وإفرادٌ وبِي حنفٌ   وغربةٌ حسراتٌ كلها نسقُ

فنرى ألفاظه قد جسدت قلقه واغترابه (قلق، الأرق، حسرة، غصص، فقر، ضيم، ضيق، إفراد، حنف، غربة).

فهذه الصورة القلقة التي رسمها الشاعر ما هي إلا تعبير عن اغترابه الذاتي، فالقلق إحساس

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص ١٨٥
(٣) ديوان الأحنف، ص ٢٦٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٧٨.

يشترك فيه ذوو المعاناة، وشعور يطغى على من أوجعتهم سياط الغربة.

٤- الفكاهة:

اختلف الشعراء في طريقة تعبيرهم عن واقعهم، فمنهم من يتخذ من الجدية طريقة في وصف حاله وتصوير حياته، ومنهم من يحاول التخفيف من وطأة الواقع فيلجأ للفكاهة والسخرية، معبرًا عن حاجته للتحرر من الكبت والحرمان.

والعكبري من الشعراء الذين سلكوا طريق الفكاهة في بعض أشعاره، اسمعه يسخر من صديق له[١]:

لي صديقٌ بلديٌّ وجهه غيظٌ وكربْ
قد رمزناه ليدري من لهُ فكرٌ وقلبْ
أبدل الحاء بكاف ثم كنيهِ بحربْ

من الأبيات يلاحظ أنه وصف صديقه بصفات ساخرة كقوله: (بلديٌّ، وجهه غيظ، كرب) محاولاً بذلك الانتقاص من قدره، وتسليط الضوء على عيوبه.

ويقارن بين حاله وما هو عليه من فقر وبين قرد يسكن في أحد القصور، وهذا القرد يسير أمام الناس في موكب حافل، وتضرب له الدفوف، وتعزف له المعازف[٢]:

رأيت في الخلدِ[٣] قردًا راكبًا ولهُ سرجٌ على الشاةِ مثغورٌ[٤] وملبوبُ[٥]
قد عنَّها بلجامٍ وهو راكبها مكرمٌ وهو محبوبٌ ومطلوبُ
يجدي على أهلهِ من فضل مكسبه ويغتدي راكبًا والقرد محجوبُ
قدّامه حاجبٌ كلبٌ ويتبعهُ قردٌ كبير ودفٌّ وهو مصحوبُ
في موكبٍ وهو محسودٌ بجمعهم مُعظَّمٌ وهو ملقوبٌ ومنسوبُ
لم أحْسُدِ القردَ لكني نظرت إلى حالي ومالي كما للقرد مركوبُ

(١) ديوان الأحنف، ص ١٢٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٣) الخلد: قصر بناه المنصور كما ورد في الديوان، ص ١٠٢.
(٤) مثفور: مأخوذة من الثغر وهو السير الذي في مؤخر السرج. كما ورد في الديوان، ص ١٠٢.
(٥) ملبوب: مأخوذ اللبب وهو ما يشدُ على الناقة يمنع السرج من الاستئخار. كما ورد في الديوان، ص ١٠٢.

ولا معاشَ كما للقرد مُكتسبٌ إلا معاشٌ عليه الذّلُّ منصوبُ

وهذه المقارنة تشير إلى سخط الشاعر من الأوضاع الاجتماعية في ذلك العصر، ففي حين ينعم القرد بكل مقومات الحياة فإن العُكْبَرِيّ لا يملك منها شيئا.

فتصويره نابع من نفس متهكمة ناقدة، تدين المجتمع العباسي بتهمة الظلم والاستبداد، فحرمان الشعب من أبسط الحقوق جريمةٌ بشعة في حق الإنسانية.

ويعبر عن رأيه في فئة من فئات المجتمع التي شاعت في ذلك العصر، وهي فئة الثقلاء فيقول(١):

أنا من طلعةِ الثقيل لما بي ما حديث الثقيل إلا عذابي
حركات الثقيل غيظٌ فإن قال فقولُ الثقيلِ وخزُ الحِرابِ
كُلما رمتُ مهربًا من ثقيل كان مني كلبستي من إهابي
ما حديثُ الثقيلِ إلا عذاب ومزاحُ الثقيل فقد الشبابِ

ويلتقط لنا صورة ساخرة من صور الحياة اليومية، وهي معاناته مع البراغيث فيقول(٢):

وليلٍ بتُّ أقطعه طويلٌ كليلِ الصَّبِّ عُذب بالصدودِ
وقد مدَّ الظلام بجانبيه وحرف عن مطالبة السُّعُودِ
تناولني براغيث تعادوا على جسدي كأمثالِ القرودِ
ديازجة كمثل الزنج هاجوا إلى طربٍ على رقص شديدِ
تراهُم في توثبهمْ غِضابا بوقع كالمطارقِ في الحديدِ
وقد أخذوا الحقائد والترادي وطَبعُ الشر من طبع اليهودِ
شببنا بيننا حربًا إلى أنْ تبدَّى الضوءُ من يوم جديدِ
وقد فعلوا بجسمي والحوايا فعال النارِ في جُلّ الَحصيدِ
وجاء نهاره فصنعت فيهم صنيع النارِ في حطبِ الوقودِ

(١) ديوان الأحنف، ص ١١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٨٧.

فالشاعر صور صراعه مع البراغيث بصور مختلفة، فمرة يشبهها بالقرود، ومرة بالزنج التي تطرب على الرقص، وأيضًا يصورهم بالمطارق التي تطرق على الحديد، وتطبعت هذه البراغيث بطباع اليهود، وشبه ما دار بينه وبينها بالحرب، فجمع بين هذه الصور بإطار ساخر فكاهي، يروّح فيه عن النفس من معاناة العيش وبؤس الحياة.

ويصور حوارًا دار بينه وبين طبيب، فيقول(١):

جئتُ أشكو إلى الطبيب الذي بِي ... من سقام فارتاعَ مني الطبيبُ
جَسَّ زندي فقال لي: بَك داءٌ ... من بلى بالذي بُليت يـــذيبُ
قلت: ما بِي؟ فقال لي: فيك همٌّ ... واشتياقٌ وزفرةٌ ونحـــيبُ
قلت: صِفْ لي فقالَ لي بانكسار ... فطبيبي مما رأى بي كئيبُ
خذ من الصبرِ والتجمل جُزءًا ... ومن الـــذّلِ فهو شيءٌ عجيبُ
وأذبهُ ببعض ماءِ التوافي ... فإذا ما فعلت جاد الحبيبُ

فترى الشاعر في الأبيات السابقة يصور ما به من لوعة وأسى بشعر فكاهي ساخر.

فهو يشكو للطبيب مرضه وسقمه، فيجيبه الطبيب ويشخص له حالته بقوله: (فيك همٌّ واشتياقُ وزفرةٌ ونحـــيبُ)، فالعبكري عاش مغتربًا قلقًا، أرهقته الهموم والأحزان، فسخر من نفسه ومن الأوضاع المحيطة به، فجاءت فكاهته الساخرة صورة لغربته المضنية.

والشاعر يسخر من البيت الذي يسكنه، فيقول(٢):

بـــــيتي إذا أبـــــصرتَهُ ... أبصرتَ قارعـــة الطريـــقِ
والبربـــــري مجالـــــسي ... وهو الأصمُّ عن النـــهوق(٣)
فـــــإذا أردتُ خطابـــــهُ ... ناديته من خَـــــرقِ بـــوقِ
أسْأَلْهُ عن خـــبر العـــريس يقـــول لي: خـــبرُ الـــسّليقِ(٤)
والغيث يهطـــلُ دائبًـــا ... منذُ الصبوحِ في إلى الغبوقِ

(١) ديوان الأحنف، ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٣) النهيق: صوت الحمار. كما ورد في الديوان، ص ٣٨٩.

(٤) السليق: الشجر الذي أحرقه حر أو برد. كما ورد في الديوان، ص ٣٨٩.

هذا يــضافُ إلى علــوٍّ الــسّنِ في زمــنٍ عقــوقِ

وتراه يوجه سهام سخريته إلى العميان، ويصب عليهم جام غضبه قائلاً[١]:

سبحان من خلق العُميان من نكدٍ واختصهم بقبيح السّخف والحسدِ
والشرُّ فيهمْ وسُوءُ الظن طبعُهمُ واللؤم والشؤم والإفسادُ في البلدِ
كأنهم خلقوا غيظاَ لكل فتًى في طبعهِ أدبٌ مُوفٍ على رشدِ
إذا الضريرُ مشى أبصرت صاعقة كأنه أسدٌ قد شُــدَّ في مشدِ
لولا أناسٌ من العُميان قد درسوا آي القران وشدَّوا الدرسَ بالعددِ
لقلتُ: إنهم أولاد طاغيةٍ من الخوارج أو نفاثةِ العُقدِ[٢]

ويقول فيهم[٣]:

سألتُ عن العمَى قومًا ظِرافًا من العميانِ قد ملكُوا البَراعَه
فقالوا: محنةٌ فيها ثوابٌ على كرهٍ وظاهُرها بشاعَه
فقلت: لشيخهم همّامِ: زدني فقال: هو السبيلُ إلى الوضاعَه
فقلت: صدقتَ ذا في الفرد منهم فقال: كذبتَ هذا في الجماعَهْ
إذا أبصرت أعمى فيه خيرٌ فقد ترك الخبيثُ رديْ طباعِهْ
ونافق فاجتنبه فذاك ذئبٌ له في كل مُخزيةٍ بضاعه
فقلتُ: وما الدليلُ فقالَ: هذا لأن الشحذ عِندهُمُ صناعَهْ
فمن نظم القريض سمعت شعرًا ركيكًا تكرهُ الأذنُ استماعه
ومن صلى بقوم أو تقرَّا فغثٌّ يشتكي أبدًا مجاعه

فالعُكْبَرِيّ يعبر عن رأيه في العميان بأسلوب ساخر، ويستخف من شخصياهم.

وقد صور حال الأعمى إذا أكل مع المبصر بقوله[٤]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ١٦٥.

(٢) نفاثة العقد: السواحر حيث ينفثن في العقد بلا ريق. كما ورد في الديوان، ص ١٦٥.

(٣) ديوان الأحنف، ص ٣٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

إذا أكل البصير مع الضريرِ فويلٌ للضرير من البصيرِ
تجولُ يدُ البصير بكل فجٍّ ويصطلمُ القليلَ مع الكثيرِ[١]
ويبقى البائسُ الأعمى حسيرًا كسيرَ القلبِ في دارِ الأسيرِ

وينتقد العبكري عيوب الآخرين بقالب فكاهي ساخر[٢]:

لنا صديق رأسه مثلهُ وطوله من رأسه أعجبُ
مذهبه الجمعُ وما إنْ لهُ في نزر ما يجمعه مذهبُ
يطلبُ من جيرانه مرهمًا كأنما في جيبه عقربُ

وهكذا اتخذ العكبري من الفكاهة وسيلة للتعبير عن اغترابه الذاتي، فتراه معبرًا عن فقره وقلة حيلته وإحساسه بالدونية، وانتقد بعض الأوضاع الاجتماعية في عصره «والفكاهة في الشعر ليست مجرد ضحكة عابرة تمر سريعًا وتنسى، إنها في الواقع تعبير مكثف وسريع، يخفي حقائق سياسية واقتصادية، واجتماعية وثقافية، وفكرية حفل بها ذلك المجتمع الزاخر المتفتح على شتى الثقافات» [٣].

(١) يصطلم: يستأصل ولا يبقى. كما ورد في الديوان، ص ٢٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٣) شعر الفكاهة في العصر العباسي، جهاد عبد القادر قويدر، رسالة ماجستير، جامعة البعث، سوريا، ١٤٣٠هـ.

الفصل الخامس

الاغتراب السياسي

عبر شعراء العصر العباسي عن اغترابهم السياسي بأساليب مختلفة وطرق شتى، وهذا ما نجده عند العكبري، فهو يعبر عن حزن دفين وألم موجع يحز في نفسه، وشعور بالخيبة في ميدان الحياة، فالشعر أصبح ترجمان الأحوال والأفكار.

واتصف بعض من الحكام والوزراء في هذا العصر بالقسوة والظلم والاستبداد، فزادت الهوة اتساعًا بين الناس وحكامهم، ولم يستطع العكبري أن يستسلم للواقع، فعبر عن رفضه لهذه السياسة الجائرة، وفي ذلك يقول[1]:

أَمِيْــــرُ الُمـــــؤمِنيْنَ بـــلاَ إمَـــارَهْ   وصَاحِبُ جَيْشِهِ خُلُــقُ العَيـــارَهْ
ولابنِ قُرَيعَة[2] القاضِي حَـــدِيْثٌ   تَصَفَعَن وهو أبْرَدُ مـــن خيَـــاره
وَفِي قَاضِي القُضَاةِ عُيُوبُ سُـــوْءٍ   تَمَعْزَلَ[3] واسْتَحَلَّ المـــالَ غَـــاره
وأمَّا ذا الـــوَزِيرُ فَمِـــنْ أَوَانـــا[4]   وحَسْبُك إنْ فَطَنْتَ إلى الإشَـــاره
فَـــإنْ تَكُـــنِ الـــوِزَارَة في أَوَانَـــا   خَطَبْنَاهَا لِـــشَيْخِ بَنَـــي حَـــرَاره
وقُلْنَا: يا بَنِي إسْـــحَاقَ ضَـــرْطًا   تَوَاضَـــعَتِ الإمَـــارَةُ والـــوِزَاره
وَأَشْراطُ القِيَامَـــةِ قـــد توافَـــتْ   وَأَعْطَى الفَارَةَ الهِـــرُّ الخفَـــاره[5]
وَمَـــا بَقِيَـــتْ مـــن الآيَـــاتِ إلاَّ   صُعُوْدُ الكَرْكَدَنَّ[6] عَلَى المَنـــارَه

فنلاحظ في الأبيات السابقة قدرة الشاعر على مواجهة الواقع، وكشف الستار عن الحقائق.

فأمير المؤمنين ليس له من الإمارة إلا اسمها، وصاحب الجيش وما يتصف به من رداءة

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) ابن قريعة، القاضي أبو بكر محمد البغدادي قاضي السندية، كان ملازمًا للوزير المهلبي في مجالس اللـــهو، وكـــان مزاحًا خفيف الروح، توفي سنة ٣٦٧هـ. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٢

(٣) أي صار معتزليًا. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٣

(٤) أَوَانا: مدينة كثيرة البساتين والشجر، من نواحي دجيل بغداد، كثيرًا ما ذكرها الشعراء والخلعاء في أشعارهم. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٣.

(٥) الخفارة: الأمان. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٣.

(٦) الكركدن: دابة عظيمة الخلق: يقال: إنها تحمل الفيل على قرنها، وتسمى الكركند والحمار الهندي، ويسمى اليـــوم وحيد القرن. كما ورد في الديوان، ص ٢٢٣.

الطباع، وحتى القاضي لم يسلم من العيوب، «فهذا الفساد وهذا الانحلال الخلقي، والتحلل من المعايير والاضطرابات في الأوضاع، والقيم الإنسانية هي كلها صفات ومميزات لذلك العصر، وقد تجسد أكثر ما تجسد في الملوك والأمراء، والوزراء والولاة وغيرهم من رجال الدولة الذين مارسوا أبشع الطرق المتمثلة في الظلم والجور، والاستغلال للرعية، حيث أدى إلى حدوث هوة كبيرة بين الحاكم والناس، وكان لابد للشعب الذي ذاق الأمرّين من ظلم حكامه، ورآهم ينغمسون في الرذيلة من أن يفقد ثقته بهؤلاء الحكام، وأن يعلن بالتالي سخطه العنيف على سياسة الدولة» (١).

فالاغتراب السياسي لدى العكبري يتمثل بمظاهر شتى، في موقفه من الحكام وحكمهم وإدارتهم، وشيوع الظلم والاستغلال وسياسة القمع والذل.

ونجده ينهى عن مصاحبة الأمراء والأغنياء، وفي ذلك يقول(٢):

لا تَصْحَبَنَّ أَمِيْرَا	ولا غَنِيًّا قَدِيْرَا
يُطَاعُ فِيْكَ إِذَا مَا	جَنَيْتَ ذَنْبًا يَسِيْرَا
أَحْكَامُهُ فِيْكَ تَجْرِي	بَغْيًا وظُلْمًا وَزُوْرَا
وَلاَ تَرَى لَكَ خَلْفًا	يَكُوْنُ مِنْهُ مُجِيْرَا
إن التَعَزُّزَ ذُلٌّ	فلا تُرِدْهُ ظَهِيْرَا
وَكُنْ مَعَ البَهْمِ واقْنَعْ	تَرَى القَلِيْلَ كَثِيْرَا
تَكُوْنُ فِيْهِمْ طَلِيقًا	وَفِيْ يَدَيْهِ أَسِيْرَا

فشعوره بالاغتراب نتيجة لفقدان العدل والمساواة في نواحي الحياة المختلفة، فهو ينهى عن مصاحبة الأمراء والأغنياء؛ لما في ذلك من الذل والهوان.

فتوزيع الثروات لم يكن عادلاً، فمن الناس من يتمتع بحياة البذخ والإسراف، على حين يعيش غيرهم في حرمان وجوع وفقر وذل، كما صور لنا ذلك في الأبيات السابقة.

وشهد العصر العباسي كثيرًا من الاضطرابات السياسية وتعدد الدويلات، فضعف أمر الخلافة، وشاع الاقتتال بين الخلفاء، وساهم العكبري بصوته في قضايا ومشكلات عصره،

(١) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي: ص ١٨١.

(٢) ديوان الأحنف، ص ٢٧٩.

وفي ذلك يقول[١]:

مُعِـــــزُّ الدَّوْلَـــــةِ الوَهَنـــــاءِ يُوْهِنُهـــــا ويُفْقِرُهـــــا
ونَاصِـــرُهَا عَلَـــى وَجَـــلٍ يُزَجِّيهـــــا ويَحْـــــصُرُها
فَـــلاَ هُـــوَ مـــؤيسٌ مِنْهـــا وَلاَ الأَقْـــوَاتُ تُحْـــدِرُهَا
ولاَ هَـــــذَا بِقُوَّتِـــــه ولاَ ذَا بَعْـــــدُ يَنْـــــصُرُها
وَأَرْوَاحُ العِبَـــــادِ الُجـــــوْعُ نَحْـــــوَ المَـــــوْتِ يَحْـــــشرُها
لَقَـــــدْ تَـــــرَكَ الوُجُـــــوْهَ الَجـــــوعُ تَعْرِفُهـــــا وتُنْكِرهـــــا
وَلَـــيْسَ لَهـــا سِـــوَى الَّرحْمـــــنِ بَعْـــدَ الكَـــسْرِ يَجْبُرُهـــا

ويقول أيضًا[٢]:

علـــــى أني بحمـــــدِ الله في بيـــــت مـــــن المجـــــدِ
بـــــإخواني بـــــني ساســـــانَ أهـــــل الجَـــــدِّ والحـــــدِّ
لهـــــم أرض خراســـــانَ فقاشـــــانَ إلى الهنـــــدِ
إلى الـــــرومِ إلى الـــــزِّنجِ إلى البَلْغَـــــار والـــــسِّندِ
إذا مـــــا أعـــــوز الطـــــرْقُ علـــــى الطَّـــــرّاق والجنـــــدِ
حـــــذارًا مـــــن أعـــــاديهم مـــــن الأعـــــرابِ والكـــــردِ
قطعنـــــا ذلـــــك النـــــهجَ بـــــلا ســـــيفٍ ولا غمـــــدِ
ومـــــن خـــــاف أعاديـــــه بنـــــا في الـــــروع يـــــستعدي

«ولهذا البيت الأخير معنى بديع، وتفسيره: يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص، وقال: أنا مكدي، فانظر كيف غاص، وأبرز هذا المعنى المعتاص»[٣].

ونلمح في تفاخره بالمكدين تصويرًا للأحوال السياسية في عصره، وما أصابها من

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٨٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٩.
(٣) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، ص ١١٣- ١١٤،ج٣.

اضطراب، فالمسافر فقد الأمان، فهو معرض لقطاع الطرق، وهذا يكشف لنا ضعف سياسة الدولة.

والخطيب له مكانته في المجتمع، ولابد أن يكون على درجة عالية من الدين والأخلاق، والأحنف يستنكر ما كان عليه بعض خطباء عصره، وفي ذلك يقول[١]:

خَطِيْبُ النَّهْرَوانِ بــه رقَاعَــهْ[٢] وَفِيْهِ عَلَــى رقَاعَتِــه وَضَــاعَهْ[٣]

وقد وقف أغلب الشعراء في العصر العباسي أمام أبواب الملوك والأمراء وسخروا شعرهم لمديحهم، واتخذوه وسيلة لكسب المال، «وأما الشعراء فقد أكثروا من شعر المديح على نحو لا نظير له، إذ كانوا ينتقلون بين العواصم ويحتشدون حول الملوك والوزراء، يمدحونهم بالعدل والحزم وضبط الأمور، وهم يعلمون أن هؤلاء الممدوحين لم يكونوا من العدل والحزم وضبط الأمور في شيءٍ، وإنما فعلوا ذلك تقربًا إليهم وأملا في الحظوة لديهم، وطمعا بالمال الذي تجمع في خزائنهم» [٤].

وإذا تأملنا شعر العكبري رأيناه يعلن تركه لأبواب الملوك، فهو لم يجد منهم إلا النبذ والإهمال، ومن هنا كان إحساسه بالاغتراب، وفي ذلك يقول[٥]:

وَتَرَكــــتُ أبــــوَابَ الُملُــــوْكِ لِمَــــا رَأَيْــــتُ مــــن الوَضَــــاعه
وبَعْــــــدَ التَوسُّــــــلِ والتَــــــردُّدِ والتَّرَسُّــــــلِ والــــــشَّفَاعَه
أُبْلَــــى بــــرَدٍّ فَــــاحِشٍ تَــــأْبى مَــــسَامِعِيَ اسْــــتِمَاعَه

ويترفع عن الملوك ويعد الفقر عزًّا، أمام ذل طلب المال منهم، فظل يرزح تحت وطأة غربته القاسية، فيقول[٦]:

---

(١) ديوان الأحنف، ص ٣٢١.

(٢) رقاعه: الرقيع: الأحمق الذي يتمزق عليه عقله، وقد رقُع، بالضم. لسان العرب، ابن منظور، م الثامن، ص ١٣٢. مادة رقع.

(٣) وضاعة: رجل وضيعٌ، وضُعَ يوضُعُ وضاعة وضَعة وضِعه: صار وضيعًا، وهو ضد الشريف. المرجع الــسابق، ص ٣٩٧.

(٤) الأدب في ظل بني بويه، محمود غناوي، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، مطبعة الأمانة ٥٨ شارع الفجالة بمصر، ص ١٤٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٢٨.

(٦) المرجع السابق، ص ٤٢٣.

أَتيهُ عَلَى الُملُوكِ بعِزَّ فَقْرِي ... وَآسو الفَقْرَ بالصَّبرِ الجَميلِ
وأُعْرِضُ عن ذَوِي الأَمْوالِ تِيْهًا ... كإِعْرَاضِ العَزِيْزِ على الذَّلِيلِ
وأَهْجُرُهُمْ إذا اجْتَمَعُوا جَمِيْعًا ... وَأَجْلِسُ بَيْنَ أبْنَاءِ السَّبِيْلِ

فمن خلال الأبيات السابقة تتراءى مشاعر الاغتراب التي تعتصر قلب الشاعر، فهو يصور لنا صبره على الفقر، وإعراضه عن أصحاب الأموال.

ويعلو صوته معبرًا عن ظلم الولاة الذين استأثروا بأموال الدولة لأنفسهم، وحرموا رعيتهم من رغد العيش، مما عمق الاغتراب لديه، وإظهاره السخط على حكام دولته، وذلك عندما يجد نفسه يتمرغ في وحل الفقر، بينما أولئك ينعمون ويبذخون على حساب شعبهم، وفي ذلك يقول(1):

قَد ظَهَرَ الجوْرُ من الوالي ... فَطَابَ لُبْسُ الَخلَقِ البَالي
واسْتَحْسَنَ النَّاسُ جُحُودَ الغِنَى ... وأَظْهَرَ الإِفْلاسَ ذُو المَال
سِرْ كَيْفَ ما شِئْتَ فإنَّ الوَرَى ... فِيْ الكَسْبِ مُحْتَالُ ابنُ محتال
قَدَ فَسَدَ النَّاسُ وقلَّ الوفا ... فَلَيْسَ مَنْ يَبْقَى عَلَى حالِ
فَكُنْ وَحِيْدًا غَيْرَ مُستأنسٍ ... بوالِدٍ دانٍ ولا خالِ
فَأَنْتَ في الوَحْدَة مُسْتَرْوِحٌ ... من عَيْبِ مَا قِيْلٍ وَمَنْ قَالِ

فنلاحظ إحساسه بالاغتراب الذي سيطر على معجمه اللغوي وتلون بلونه، كقوله: (الجور من الوالي، لُبْسُ الَخلَقِ البَالي، جحود الغني، الإفلاس، فسد الناس، وحيدًا)، بالإضافة إلى كثرة استخدامه لحرف السين وهو من الحروف المهموسة، التي يوحي استخدامها بالحزن والتعبير عن خلجات النفس الداخلية وهواجسها.

فالعكبري يعبر عن محنة البؤس والفقر التي يعيشها أغلب الشعب وكما يقول شوقي ضيف: «ومن المؤكد أن الطبقات البائسة في العصر كانت أكثر الطبقات عددا، وكانت تكدح وتشقى وتتصبب عرقا لينعم الخلفاء والوزراء، وعلية القوم وكبار التجار والإقطاعيون بالحياة الرغدة والعيش الناعم، غير مفكرين في جوع جائع، ولا في عري عارٍ، بينما تتجرع

(١) ديوان الأحنف، ص ٤٢٤.

الطبقة الفقيرة التعسة آلاما ثقالا، وأهوالا طوالا، وكأنما عميت الأبصار وصمت الأسماع، فلا بصير ولا سميع ولا من يطمع جائعًا أو يكسو عاريًا أو يروي ظامئًا، وكان من أبناء هذه الطبقة من رزق موهبة الشعر، فمضى يصور حرمانها وعريها وجوعها وظمأها، شاعرًا بما يصطلي به من أفرادها من تعاسة وبؤس شديد» [١].

فهو يطلق صوته معبرًا عن أنّات الجياع وآهات المحرومين.

ونرى العكبري يمدح من يستحق المدح، قال مادحًا أبا مسلم محمد الأَصْبَهَاني الحاجب[٢]:

عمرتَ ضواحي عُكبرا وعِراصَها ... بعدلِ رئيسٍ هذبتهُ التجاربُ
عفافًا وعدلاً وانتصارًا وسطوةً ... ألاَ بأبي للهِ تلكَ الضرائبُ
وراعيتَ أحوالَ الرعيّةِ مشفقًا ... فَدرَّت عَلَيْهم بالنَّقيِّ المكاسِبُ
وقرّبتَهم حتى كأنكَ والدٌ ... فحلمُك موجودٌ وكَيْسُكَ[٣] غالبُ
فَعِشْ سالمًا تُخشى وتُرجى وتُتّقى ... برغْم العِدَى ما دام للدرِّ حالبُ
وما كنتُ أعيا للقريضِ ونَظمِه ... فمِنْها إذنْ سُدّتْ عليّ المذاهبُ
ثمانونَ عامًا أخلفتني ولم أزلْ ... جَليدًا إذا ما صافحتني النوائبُ
فأصبحتُ كالشيءِ اللّقى بعد نهضتي ... إلى مَعْجرٍ قد غَيبتهُ الغياهبُ[٤]
مَدحتُكَ مُختارًا ورُمتُ تَشرُّفًا ... وإنيَ من مدحي سِواكَ لتائبُ

ويعبر لنا عن قناعته بالفقر، والراحة التي يشعر بها فهو عندما يدخل دواوين الملوك، ويرى ما فِيها من الإسراف، يقنع ويرضى عن حاله، وفي ذلك يقول[٥]:

---

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، شوقي ضيف، ص ٨٨.

(٢) قد يكون الممدوح محمد بن أحمد بن مهدي الأَصْبَهَاني، كان كاتبا، روى عنه التنوخي، ينظر: نشوار المحاضرة ٣/ ٢٤٧، ويتضح من القصيدة أنه كان واليا على عكبرا. كما ورد في الديوان، ص ١١٦.

(٣) كيسك: العقل. كما ورد في الديوان، ص ١١٦.

(٤) اللقي: كل شي مطروح متروك كاللقطة، الغياهب: الظلمات ويريد الشاعر مصائب الحياة وآلامها. كما ورد في الديوان، ص ١١٦.

(٥) ديوان الأحنف، ص ٣٦٥.

أَنَا الأَحْنَفُ الرَّاضي بفَقْرٍ وعِفَّــةٍ ... ورَاحَةِ قلْبٍ من جَرَائِرِ[١] مَنْ سَــلَف
دَخَلْتُ دَوَاوينَ الْمُلُوْكِ فَلَم أجْــد ... يُعذَّبُ فيها غَيْرَ مُثْــرٍ ومُــسْتَرِف[٢]
ولَمَ أرْضَ بالفَقْر اختِيارًا وإنَّمــا ... بَلِيتُ به بَلْــوَى عَفِيــفٍ بمُقْتَــرِف[٣]

ويقول[٤]:

أرى رجالاً على خيــلٍ مــسومــةٍ ... يشيدُ مُلكَهُــمْ الأتــراكُ والَخــزرُ[٥]
عليهمُ الخزُّ والديبــــاجُ يبطــنــــهُ ... غَلائلُ الــشَّربِ والأنبــوبُ والحِــبرُ
في الماءِ غرقَى وبــيتي مُقفِــرٌ شــعث ... فقْرَ العِراصِ[٦] فــلا مــاءٌ ولا مطــرُ
أقولُ والفقــرُ يأسُــوني ويَجــرحُني ... والحرفُ يقــذِفُني في لُجَّــة الفِكــرِ
يفنى شقائي كمَــا يفــنى نعــيمُكُم ... وتَــــسْتَوي حِــــين لا وزْرٌ ولا وَزَرُ

وفي الأبيات السابقة ينقل لنا الأحنف صورة من الواقع الأليم الذي يعيشه، والذي فجر ثورة عارمة في النفوس، وكيف أن رجال الدولة ينعمون بحياة رغيدة، من ملبس ومشرب ومأكل، وأتبعها بما يناقض هذه الصورة وهي الفقر المدقع الذي دفع بالعكبري وغيره من الشعراء إلى غياهب الاغتراب السياسي، وأوجدت شرخًا عميقا في علاقته بحكومته، التي لم تراعِ حق المواطن، فمن حقه أن يعيش في وطنه وينعم بخيراته.

«ويبرز صوت الأحنف العكبري المكدي وهو شاعر استطاع أن يكتشف خلل عصره، وسبب سوء حاله وحال أقرانه من الأدباء المهمشين، فوجد علة ذلك في النهب والاستغلال والتمايز، والتفاوت الطبقي والاجتماعي» [٧]، وفي ذلك يقول[١]:

---

(١) الجرائر: جمع جريرة، وهي الذنب والجناية. اللسان ٤/ ١٢٩، مادة: جرر.

(٢) مسترف: من السرف، وهو التبذير ومجاوزة القصد. اللسان ٩/ ١٤٨، مادة: سرف.

(٣) مقترف: متهم وقرف عليه فهو يقرف قرفًا إذا بغى عليه. اللسان ٩/ ٢٨٠، مادة: قرف.

(٤) ديوان الأحنف، ص ٢٢٨.

(٥) اسم إقليم من قصبةٍ تسمى بـــ (إتل)، وإتل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار. كما ورد في الــديوان، ص ٢٢٨.

(٦) غلائل، والأنبوب، والحبر، والعراص سبق بيانها في الصفحة [٤٣].

(٧) أدب الفئات الهامشية في العصر العباســي، أحمــد الحــسين، http:/ / www. startimes. com/ f. aspx?t=٣٢٧٧٦٥٩٩

أُريْـــتُ في النـــوم دُنيانـــا مُزينـــةً مثلَ العروسِ مَشتْ بين المقاصـــيرِ
فقلْتُ: جودي، فقالتْ لي وقد حَسَرتْ إذا تخلصْتُ من أيـــدي الخنـــازيرِ

و «لقد عاش الشاعر العباسي غربة سياسية على مستوى الفرد وعلى صعيد الجماعة، كما شعر بانفصاله الحاد عن القيادة السياسية التي رأى أنها لم تحقق له طموحه، ولم تكن مؤهلة -في نظره- لقيادة دفة البلاد، وهذا الشاعر المعذب قد غدا رهين قيود الاغتراب التي أوهت قوته، وزرعت الأشواك في دروبه الطويلة كلها» [٢].

فالعكبري صوت الفئات المسحوقة والمظلومة في عصره، فقد آلمه ما يراه من مشاهد الحياة اليومية، فلم يكن سلبيًّا بموقفه، بل علا صوته وسط الآلاف الصامتة، فالشعور بالاغتراب السياسي نابع من الاستبداد السياسي، ومن الإحساس بالظلم والذل الذي وقع تحته كثير من فئات المجتمع الكادحة، فهو يتمرد بصوته على الحكومة الجائرة.

(١) ديوان الأحنف، ص ٢٥٣.
(٢) الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، صغير العنـــزي، ص ١٦٨.

الخاتمة

أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج تتلخص فيما يلي:

١- أن ظاهرة الاغتراب من الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن إغفالها في أي مجتمع من المجتمعات، وقد حظي مفهوم الاغتراب باهتمام الباحثين في شتى مجالات الفكر والفن، ويعدّ موضوع الاغتراب من الموضوعات الشائكة، التي تتطلب دراسات مستقلة تناسب تشعباته.

٢- أن ظاهرة الكدية لم تنبثق فجأة، ولكن كان لها جذورها في العصور القديمة، ابتداء بالصعلكة في العصر الجاهلي، وانتهاء بالكدية في العصر العباسي، وأن هناك فروقًا بينهما.

٣- أن للأوضاع السياسة في العصر العباسي دورًا كبيرًا في تفاقم ظاهرة الاغتراب لدى الأحنف، ومعاناته من الاضطرابات السياسية والتناحرات المذهبية، كما ساهم العامل الاقتصادي في رفع مؤشر الاغتراب لديه، إذ علت قيمة المال على باقي القيم، وأصبح معيار المفاضلة بين الناس، وكان للتفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع أثره في زج العكبري في غياهب الاغتراب، واختياره للعزلة وعدم مخالطة الناس، وكما كان للعامل الثقافي دور لا ينكر في اغتراب الشاعر.

٤- من أهم أنواع الاغتراب التي لمسناها في شعر الأحنف الاغتراب المكاني والزماني، فهما يشكلان حيزًا في شعره، وقد عبر عن غربته داخل الوطن وخارجه، وكان للاغتراب الاجتماعي مساحة شاسعة في نصوص العكبري، فقد عبر عن اغترابه عن الناس واغترابه عن قيم المجتمع، وقد استفحل الاغتراب الذاتي لديه، فنجد اغترابه عن ذاته الأصلية وكذلك إحساسه بالدونية، ولم يغفل الشاعر عن الاغتراب السياسي الذي يتمثل في الاستبداد السياسي، وظلم بعض الحكام.

٥- ندرة القصائد الطويلة في شعر العكبري، فكانت أغلب قصائده مقطوعات صغيرة، فلم يكن مثل شعراء عصره، فهو شاعر شعبي ينطق باسم الشعب، ويراعي جمهوره الذين هم عامة الناس، فهو يعطيهم جرعات صغيرة تتسع لها أذهانهم، وتستوعبها عقولهم، وليس لديه وقت للإطالة.

٦- يخلو شعره من التكلف، ويمتاز بالسهولة والبعد عن الغموض، فهو يخاطب عامة الشعب.

٧- أكثر من الأبيات التي يصف فيها فقره وحاجته، فكان يوضح لنا عمق اغترابه في قصائد شعرية تثير الشجن والألم.

٨- حفل معجم العكبري اللغوي بألفاظ الغربة والاغتراب.

٩- كشف لنا الأحنف العكبري عن مأساة الفقر في عصره، وأن هناك طبقةً من المثقفين والأدباء تعيش في الهامش، ولا يحظى بالتقريب إلا النخبة التي تخدم أهداف السلطة.

١٠- عبر عن الظلم الذي وقع تحته كثير من فئات المجتمع الكادحة من قبل بعض الولاة.

١١- صدق العاطفة في شعر العكبري.

١٢- كانت أشعاره ناجمة عن الإحساس بالقهر والظلم، فلم يستهل قصائده بالمقدمات التقليدية المعروفة، كالوقوف على الأطلال أو النسيب، وما يلي ذلك من وصف الناقة والصحراء والرحلة.

١٣- لم يتأنق في أشعاره، وابتعد عن القوالب الغريبة، ونظم على الأوزان القصيرة.

الفهارس الفنية للرسالة

وتشتمل على الفهارس الآتية:

١١- فهرس المصادر والمراجع.

١٢- فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع

١- **اتجاهات جديدة في شعر العصر العباسي الأول:** لفوزي عيسى، ٢٠١١م، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية.

٢- **الأحنف العُكْبَرِيّ، شاعر المكدين والمتسولين:** لأحمد الحسين، http:/ / www. dahsha. com

٣- **الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي:** د. محمود رزق حامد، ٢٠١٠م، ط١، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

٤- **أدب الغرباء:** لأبي فرج الأَصْبَهَاني، نشره عن مخطوطة فريدة في العالم د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط١، ١٩٧٢م.

٥- **أدب الفئات الهامشية في العصر العباسي:** لأحمد الحسين، http:/ / www. startimes. com/ f. aspx?t=٣٢٧٧٦٥٩٩

٦- **الأدب في ظل بني بويه:** لمحمود غناوي، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، مطبعة الأمانة، ٥٨ شارع الفجالة بمصر.

٧- **الإشارات الإلهية:** لأبي حيان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

٨- **أصول علم النفس:** لأحمد عزت راجح، ط١، ١٩٦٨م، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

٩- **الأعصر العباسية، الأدب المحدث: إلى آخر القرن الرابع الهجري ١٣٢-٣٩٩هـ (٧٥٠-١٠٠٨ م):** لعمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت.

١٠- **الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي:** لصلاح الدين أحمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

١١- **الاغتراب سيرة ومصطلح**: لمحمود رجب، ط٤، ١٩٩٣م، دار المعارف، القاهرة.

١٢- **الاغتراب في الإسلام**: لفتح الله خليف، عالم الفكر، مج ١٠، ع١، ١٩٧٩م، مجلة دورية تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت.

١٣- **الاغتراب في الشعر الأموي**: لفاطمة محمد حميد السويدي، ط١، ١٩٩٧م، الناشر مكتبة مدبولي.

١٤- **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري**: لسميرة سلامي، الناشر: دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

١٥- **الاغتراب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري دراسة في المفهوم والرؤية والفن**: لصغير العنتري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.

١٦- **الاغتراب في الشعر العربي المعاصر**: لنهاد عبد الحفيظ سليمان الشريف، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

١٧- **الاغتراب في القصة القصيرة فِي الجزيرة العربية**: لأميرة علي الزهراني، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٢٦هـ-١٤٢٧هـ.

١٨- **الاغتراب في القصيدة الجاهلية**: لمحمود هياجنة، دراسة نصية، دار الكتاب الثقافي، الأردن، عمان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٩- **الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره**: لروضه بلال المولد، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٠- **الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي**: لعزيز السيد جاسم، بيروت: دار الأندلس، ١٤٠٦هـ.

٢١- **اغتراب في شعر أبِي العلاء المعري دراسة موضوعاتية فنية**: لحياة بوعافية، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠٠٨م.

٢٢- **الاغتراب والإبداع الفني**: لمحمد عباس يوسف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٢٣- **الإنسان المغترب عند ايرك فروم**: د حسن حماد، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٢٤- **البداية والنهاية**: للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي القاهرة، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٩هـ.

٢٥- **البصائر والذخائر**: لأبي حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، ت: وداد القاضي، الناشر: دار صادر بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٦- **البيان والتبيين**: لعمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٢٧- **تاج العروس من جواهر القاموس**: للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد الفرج، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، مطبعة حكومة الكويت.

٢٨- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، شوقي ضيف، الناشر: مطبعة المعارف، القاهرة، ط٢٤، ٢٠٠٣م.

٢٩- تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط١٦، ٢٠٠٤م، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٣٠- **تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول**: لمحمد عبد المنعم خفاجي، ط١٦، ٢٠٠٤م، دار المعارف، القاهرة.

٣١- **تاريخ التمدن الإسلامي**: لجرجي زيدان، ط٣، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٢١م.

٣٢- **تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الأول**: د. محمود علي عبد المعطي، ط١، ٢٠٠٩م، دار النشر الدولي، الرياض.

٣٣- **تهذيب اللغة:** لأبي منصور الأزهري. تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م-١٩٦٧م.

٣٤- **حركة التجديد فِي الشعر العباسي:** لمحمد عبد العزيز الموافي، دار غريب، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٦، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣٥- **الحركة الفكرية والثقافية في عكبرا خلال العصر العباسي:** لعبد الإله علي حسن البلداوي، رسالة ماجستير، مركز عكبرا للبحوث والدراسات، العراق.

٣٦- **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة الإسلامية:** لآدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، ط٥.

٣٧- **الحيوان:** للجاحظ: عمرو بن بحر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

٣٨- **خطاب الموت في الشعر الجاهلي:** لأحمد الحسين، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر، http:/ / www. nizwa. com

٣٩- **دراسات في سيكولوجية الاغتراب:** لعبد اللطيف محمد خليفة، ط ٢٠٠٣م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٤٠- **دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر:** لقادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

٤١- **ديوان أبِي تمام بشرح الخطيب التبريزي:** تحقيق محمد عبده عزام، ط٤، الناشر: دار المعارف، د، ت، القاهرة.

٤٢- **ديوان الأحنف العكبري،** تحقيق سلطان بن سعد السلطان، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٤٣- **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السِّكِّيْت:** دراسة وتبويب د مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٤- **ديوان امرئ القيس:** ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، ط٥، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٥- **ديوان مالك بن الريب حياته وشعره:** تحقيق: نورى حمودي القيسي، مستلة من مجلة معهد المخطوطات العربية.

٤٦- **شرح أشعار الهذليين:** لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، ت عبد الستار أحمد فراج، دار النشر: مكتبة دار العروبة، القاهرة، د، ت.

٤٧- **شرح ديوان عنترة بن شداد:** عني بتصحيحه: أمين سعيد، المطبعة العربية بمصر، د، ت.

٤٨- **الشعر والشعراء في العصر العباسي:** لمصطفى الشكعة، ط٦، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦م.

٤٩- **الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور:** لشوقي ضيف، ط٢، مصر: دار المعارف.

٥٠- **شعراء الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجري:** علي نجيب عطوي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٠هـ.

٥١- **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي:** ليوسف خليف، ط٣، القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٠م.

٥٢- **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول:** لحسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٩٧م.

٥٣- **شكوى الدهر في الشعر الجاهلي:** لعارف عبد الله محمود، مجلة ديالي، العدد السابع والخمسون.

٥٤- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:** لإسماعيل حماد الجوهري، ت أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م، بيروت، لبنان.

٥٥- **صحيح مسلم:** للإمام مسلم، ت محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م.

٥٦- **ضحى الإسلام:** لأحمد أمين. بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت.

٥٧- **طبقات الشعراء:** لعبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف، القاهرة، ط٣.

٥٨- **طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول:** لإبراهيم سلمان الكروي، ٢٠٠٨م، مركز الإسكندرية للكتاب.

٥٩- **ظاهرة الاغتراب في شعر إبراهيم ناجي وعبد الله الفيصل عرض وتفسير وموازنة:** لعزت محمود علي الدين، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٦٠- **ظاهرة الكدية في الأدب العربي نشأتها وخصائصها الفنية:** لحسن إسماعيل عبد الغنى، مكتبة الزهراء، مصر، ١٤١١هـ.

٦١- **ظهر الإسلام:** لأحمد أمين، ط٥، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م.

٦٢- **العزلة الاجتماعية:** د. خليل إبراهيم السعادات، الشبكة العنكبوتية، العدد (١١٩١١)، الاثنين ١، ربيع الآخر ١٤٢٦هـ. http:/ / www. al-jazirah. com/ ٢٠٠٥/ ٢٠٠٥٠٥٠٩/ rj٣. htm

٦٣- **الغربة في الشعر الجاهلي:** لعبد الرزاق الخشروم، الناشر: اتحاد منشورات العرب، دمشق -١٩٨٢، (ت-ط).

٦٤- **الغربة والاغتراب والشعر:** لعبده بدوي، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م.

٦٥- **الغربة والحنين إلى الديار في شعر العصر العباسي الثاني (٢٣٢هـ-٣٣٤هـ)**: لمحمد عبد المنعم محمد قباجة، رسالة ماجستير، جامعة الخليل.

٦٦- **الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث**: لعمر بوقرورة، ١٩٤٥م-١٩٦٢م، منشورات جامعة باتنة، د. ط، د، ت.

٦٧- **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**: لابن حجر العَسْقَلانِيّ، دار مصر للطباعة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٦٨- **فكرة الزمن في الدراسات العربية**: لحسين جمعة، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد ٨٦-٨٧، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ آب (أغسطس) ٢٠٠٢م، السنة الثانية والعشرون.

٦٩- **فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية**: د. حبيب مونسي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٢٠٠١م.

٧٠- **القاموس المحيط**: للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٧١- **الكامل في التاريخ**: لعز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٧٢- **اللزوميات**: لأبي العلاء المعري، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الإخصائيين، منشورات محمد علي بيضون، دار العلمية، بيروت لبنان، د، ت، ٢٠٠١م.

٧٣- **لسان العرب**: لمحمد بن مكرم بن علي، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١هـ.

٧٤- **المحاسن والأضداد**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٧٥- **المحاسن والمساوئ:** لإبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ١٩٩١م.

٧٦- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة:** لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، ١٣٩١هـ-١٩٧١م، مكتبة البابي الحلبي.

٧٧- **مروج الذهب ومعادن الجوهر:** لأبي الحسن بن علي المسعودي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

٧٨- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:** لمسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

٧٩- **مظاهر الاغتراب لدى بعض الطلبة السوريين بمصر:** لبشرى علي، مجلة جامعة دمشق، المجلد٢٤، العدد الأول، ٢٠٠٨م.

٨٠- **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب):** لشهاب الدين أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي، ت: إحسان عباس. الناشر: دار الغرب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٨١- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:** جواد علي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين.

٨٢- **مقامات الحريري:** لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، الناشر: مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

٨٣- **مقاييس اللغة:** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٨٤- **مقدمة القصيدة العربية فِي العصر العباسي الأول:** لحسين عطوان، ط٢، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٧هـ.

٨٥- **المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي الالتزام، والاغتراب، والتمرد:** للدكتور حسني عبد الجليل يوسف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م، الإسكندرية.

٨٦- **موسوعة أدب المحتالين:** لعبد الهادي محمد خير حرب، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٨م.

٨٧- **موقف أبي العلاء المعري من الدهر:** ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٩، بقلم فرهاد ديو سالار، الشبكة العنكبوتية http:/ / www. diwanalarab. com/ spip. php?article١٨٦٦٥

٨٨- **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي:** لمحمد زكي العشماوي، الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، د، ت.

٨٩- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:** لابن تغري بردي، الناشر: وزارة الإرشاد القومي، دار الكتب، د. ت، مصر.

٩٠- **الورقة:** لأبي لعبد الله محمد بن داود الجراح، ت: عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٣.

٩١- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:** لابن خلكان. ت: إحسان عبد القدوس، الناشر: دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

٩٢- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:** لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: الأستاذ: إبراهيم صقر، الناشر: مكتبة مصر، د. ت.

فهرس الموضوعات

إجازة الرسالة ٣
الإهداء..... ٤
الخلاصة..... ٥
Abstract..... ٦
المقدمة:..... ٧
أهمية البحث وأسباب اختياره ٩
أهداف البحث ٩
مشكلة البحث والتساؤلات..... ١٠
صعوبات البحث..... ١٠
منهجية البحث ١١
خطة البحث ١١
منهج البحث ١٢
الدراسات السابقة ١٣
التمهيد: ١٥
١) مفهوم الاغتراب ورحلته من علم لنفس إلى عالم الإبداع ١٦
٢) مدخل إلى مفهوم الكدية في الشعر العربي عامة، والشعر العباسي خاصة ٢٨
الفصل الأول: عوامل نشأة الاغتراب: ٣٩
المبحث الأول: العامل الاجتماعي ٤٠
المبحث الثاني: العامل السياسي ٤٩
المبحث الثالث: العامل الاقتصادي..... ٥٥
المبحث الرابع: العامل الثقافي..... ٦١
الفصل الثاني: الاغتراب المكاني والزماني:..... ٦٧
المبحث الأول: أهمية المكان والحنين إلى الوطن ٦٨
المبحث الثاني: الشاعر والموت..... ٧٩

المبحث الثالث: الشاعر وأحداث الزمان..... ٨٧

الفصل الثالث: الاغتراب الاجتماعي:..... ٩٦

المبحث الأول: الاغتراب عن الناس..... ٩٧

المبحث الثاني: الاغتراب عن قيم المجتمع.....١٠٨

الفصل الرابع: الاغتراب الذاتي: ١١٨

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب الذاتي ١١٩

المبحث الثاني: صور الاغتراب الذاتي:..... ١٢١

١- الاغتراب عن الذات الأصلية ١٢١

٢- الإحساس بالدونية.....١٢٥

٣- التوجس والقلق ١٣١

٤- الفكاهة ١٣٤

الفصل الخامس: الاغتراب السياسي ١٣٩

الخاتمة.....١٤٨

الفهارس الفنية للرسالة: ١٥٠

فهرس المصادر والمراجع.....١٥١

فهرس الموضوعات ١٦٠